ملحق النهار

النهار 83 سنة

السبت 3 تشرين الأول 2015 | Samedi 3 Octobre 2015 | العدد 1226

18

الحلم حارس النوم
والنوم أرض كنوزه

22 نثرُ القطار العابر سيبيريا

احذروا أحلامنا الخطيرة

لوحة لبول دلفو.

لماذا أكتب هذه الافتتاحية عن الحلم؟ ببساطة فاقعة: لأننا نعتقد أن الحلم يمكّننا من دخول الطبقات العذراء والأمكنة المجهولة في نخاعاتنا الشوكية، ومن اختراع سبل خلّاقة وفعلية للعيش وللمواجهة؛ مواجهة سقوط السياسة، وسارقيها، وسقوط المؤسسات، وانهيار الدولة. بالحلم، نحمي حياتنا. والقيم التي نؤمن بها. به نستطيع تحصين مناعتنا الداخلية، وتأليب الرأي العام، وتحفيزه، وتحذير سارقي حياتنا من مفاعيل أحلامنا الخطيرة. هل ينبغي لنا أن نتناسى أننا بالحلم نصنع الحبّ والشعر والحرية؟! زميلنا عبده وازن وضع نصاً طويلاً عن الحلم، بين التأمل والبحث، ننشر مقاطع منه، تعميماً للفائدة.

عقل العويط

إنه أوان الحلم. لو تركتَ للأمر الواقع أن يستولي عليَّ، لكان ينبغي لي أن أكون في مقبرة، أو في مصحٍّ عقلي ونفسي.

لولا أنني أحلم، لكنتَ زعيماً سياسياً، أو رئيس دين، أو صاحب مصرف، أو غاسل أموال، أو حجراً على قارعة، أو شوكةً يابسة في أرضٍ مهجورة.

لكنني أحلم، وهذا تماماً ما يجعلني قادراً على النوم حيث أستطيع أن أسلس القياد وأطلق العنان لرغباتي وهواياتي ومطامحي كلّها، ويجعلني قادراً على الاستيقاظ لمجالسة ركوةٍ موحشة من القهوة، وتحمّل أوزار النهارات والمستأسدين البشريين الكثر.

ولأنني أحلم، أريدكم أيّها القرّاء، أن تظلّوا تحلمون، لئلا يُصاب أحدٌ منكم بجَرَب الأمر الواقع، وهو وجودنا المسرطن، الذي هو الحياة الكلبة التي نعيشها.

ولأنني أحلم، أدعوكم إلى المواظبة على الحلم. ليس لأنه منتج أو مفيد أو منقذ. بل خصوصاً لكي نكون أكثر قدرةً على تحمّل الأوجاع والوقائع، وهؤلاء الوحوش الضارية.

ولأنني مصرٌّ على الذهاب بالمغامرة إلى آخرها، وهي – للعلم والخبر - مقامرةٌ غير محسوبة النتائج، أدعوكم إلى الحبّ، إلى الرفض، إلى السعادة المتواضعة، إلى الفرح الرومنطيقي، إلى الغناء، إلى السباحة في الفجر والليل، ومساءلة القمر عن أحواله، وهواء أيلول عن رعشاته. وأدعوكم إلى النوم في العراء، لتلقّي الرؤيا على أصولها.

ولأنني أريد أن أشتري كتباً مدرسية، وأن أسدّد الأقساط المتراكمة، أدعوكم، بأعلى ما في حنجرتي من صراخ، إلى نجدتي، ومضاعفة أحلامي، لكي لا يتسنّى لي أن أفكّر، أكثر من اللزوم، في معطيات هذا الأمر الواقع، كما ينبغي لرجلٍ واقعيٍّ وعاقلٍ أن يفعل.

■■■

أحلم، وأدعو القرّاء إلى الحلم، لا هرباً، بل للتمكّن من مواصلة المواجهة.

كلما حلمنا، أرجأنا توقيت الوقوع في فم الوحش، أو بالأحرى، تفاديناه، وحقّقنا انتصاراً موقتاً على مَن يتحرّق لرؤيتنا مستسلمين.

ومَن يدري، ربما إذا حلمنا كثيراً وجيّداً، حقّقنا ما قد لا يَستطاع تحقيقه في المواجهة الملموسة.

يجب أن يحصل ذلك. "بالقوة"!

أن نحلم، يعني أن ننتصر، وهو انتصارٌ وديعٌ، متواضعٌ، عابرٌ، نافلٌ، لكنه يؤذي "الواقعيين"، القتلة الماديين والمعنويين بدم بارد، شركاء الأمر الواقع، المباشرين وغير المباشرين، هؤلاء الذين يمنعون علينا – موضوعياً - حتى أن نكون أحراراً في الحلم.

■■■

لكنني حالمٌ خطير. لم أترك، بالحلم، سلطةً جائرة إلاّ أنزلتُها عن عرش جورها. لم أدَع سارقاً يسرح ويمرح خارج السجون. ولا فاسداً يتملّص من غرفة الجراذين والصراصير.

لقد أطلقتُ أحلامي الخطيرة على هؤلاء، لتلاحقهم حيثما حلّوا ورحلوا.

كلّ الذين ارتكبوا، وهم لا يزالون يرتكبون بالطبع، ها هنا، "يقعون" في مرمى أحلامي.

أقول لهؤلاء: لا تستخفّوا بالأحلام. فهي خطيرة. لا أحد منكم يعرف كيف. ولا متى تتحوّل هذه الأحلام إلى واقع. ولا متى تقعون في فخاخها.

■■■

لا أحد ينجو من خطر الأحلام. لا أحد.

أقول لبعض النساء خصوصاً: لا امرأة اشتهيتُها إلاّ صارت بعضاً من رأسي وجسمي. للعلم والخبر: كلّما خضعتُ للفحص بالأشعة السينية، انكشف ذلك كفضيحة، على طريقة "الجرم المشهود".

وأقول للقصائد: لا قصيدة رغبتُ في أن تكون قصيدتي، إلاّ صارت جزءاً من رأسي، أو بعضاً من ديوانٍ مخطوط.

■■■

فلنحلم. إلى أن يستتبّ "منطق" الحلم.

وإذا ليس ليستتبّ هذا "المنطق". إذا ليس لشيء، أو لسببٍ نفعي، فلنحلمْ من أجل الحلم في ذاته. ولنحلمْ نكايةً. نكايةً بالذين يريدوننا جثثاً، أو حجارةً بكماء، أو أرقاماً انتخابية. وعلى الأخص، نكايةً بالذين ليس في مقدورهم أن يحلموا، لأن رؤسهم وقلوبهم وضمائرهم مبلّطة. هؤلاء مخصيّون، وسيقتلهم الواقع، عاجلاً أم آجلاً. سيكونون داخل غرفهم المغلقة، عندما يختنقون بالواقع. وسيتلفعون بأموالهم وجرائمهم، وهي ستكون لهم بمثابة توابيت وضرائح مشهودة.

فلنحلم نكايةً بهؤلاء.

فلنحلم نكاية بالأسد. بالبعث. بـ"داعش". بالتكفيريين. بالحكم الديني في الخليجين العربي والفارسي.

يكفي أن نحلم، لكي نفوز عليهم. حقدنا الحلمي هذا، سيلاحقهم إلى غرفهم السرية، وسيفوز عليهم. الحلم هو حقدنا الوحيد، وهو انتقامنا. إنه فوزٌ مطلق. يفوز ولا يُفاز عليه.

■■■

لا أعرف تماماً متى أحلم ومتى لا. ليس من جدارٍ فاصل بين الوعي الواعي الكامل والوعي الناقّص الذي لا يمكن ضبط النزف فيه. شيءٌ ما يتسرّب باستمرار من منطقة مجهولة فيَّ، يبلّل عقلي، ويجعلني وسيطاً شخصياً ولغوياً بين عالمَين متكامِلَين، لكنْ متنافرَين. هذه مسألة لا أحبّ أن أعيرها اهتماماً عقلياً، ولا أن أفكّكها نقدياً أو نفسياً. بل أميل إلى تركها على غاربها لتأخذ مجراها الحرّ. من شأن ذلك أن يجعلني على وئام - خصام، ليس مع العالم فحسب، بل خصوصاً مع الذات التي هي أنا، المتباهية بقدرتها على التجوال بين المنطقتين، من دون أن تتعرّض لقنصٍ يرديها هنا أو هناك. لقد أمضيتُ عمري على هذه الحال، وجنيتُ من الخسارات والأرباح ما لا يَجمَع في مصرف أو في كتاب. ليس بي رغبةٌ، في الأفق العقلي، تجعلني أحيد قيد أنملة عن الشغور الهائل الذي يلمّ بي من أقصايَ إلى أقصاي، وأنا مستسلمٌ لمنطقٍ كهذا، يخلو من المنطق. شغورٌ يملأني بما لا تَملأني به الحياة المعقلنة. شغورٌ سحيق، ممتلئ بذاته، هو وجودي حرّاً، عاشقاً، مجنوناً، عاقلاً، ماجناً، كاتباً، ولا حدود. تبّاً لي! كيف أتلذّذ بما أنا بي، وفيه، وكيف أستطيع أن أتحمّل الفصام الهائل الذي ينجم عن التوأمة بين هذين الشقيقَين اللدودَين.

لستَ واعياً ولستَ لاواعياً. لا أعرف ماذا أنا، ومتى ينحاز بعضي إلى هذه الدفة أو إلى تلك. لم أذهب يوماً إلى عملي بوعيي الكامل. لم أعد يوماً إلى بيتي بوعيي الناقص. لا أذكر أنني فعلتُ شيئاً، وأنا على أهبة واعية أو لاواعية، كاملتَين. أذكر فقط أنني شخصان اثنان ولستُ واحداً. لذا لم أنجح نجاحاً كاملاً كشخصٍ واعٍ، لاقتناعي بأنني لا أريد هذا النجاح، وليس ثمّة في طبقات وجودي الدفينة ما يشتهي هذا النجاح ويرغب به.

نجحتُ في الحبّ عندما أسلستُ له القياد. لم أنجح في الحبّ عندما تركتُ للوعي أن يتدخل فيه. هذه حقيقةٌ أشهد لها على سبيل البوح، ومن أجل المصالحة مع ذاتي، وليس من أجل أيّ حقيقة عامة خارجية. لستُ شخصاً صالحاً لأداء وظيفة عائلية أو اجتماعية أو سياسية. لستُ مؤهلاً للخدمة العامة. أنا شخصٌ صالحٌ فحسب لخدمة الحلم. كلما شئتَ للحلم أن يتبلور، انزاحت غيمة من رأسي، مثلما ينزاح شتاءٌ أو بحرٌ بأكمله، فيتخربط المعيار. ليس عندي مصلحة مادية أو معنوية في بلورة أحلامي، بما يجعلها قريبة من التحقق، أو قابلة له. كلما فعلتُ شيئاً من هذا القبيل، سقط حلمٌ من رأسي مثلما تسقط تفاحةٌ قبل أوانها.

■■■

هذه البلاد تموت كلما كانت قليلة الأحلام. فلنجعلها تحلم. لعلها تستيقظ!

يجب أن نجعل هذه البلاد تحلم. فلنجعلها تحلم "بالقوة"!

akl.awit@annahar.com.lb

الحلم حارس النوم والنوم أرض كنوزه

لوحة لبول دلفو.

إنني شخص حالم. أحلم في الليل عندما أغمض عينيَّ، وفي أويقات الصباح الأولى حين يخطفني النعاس قبل أن أنهض متثاقلاً من الفراش، وفي هنيهات ما بعد الظهيرة، لمّا يحلّ بي الوسن الشفيف الذي يغدو كأنه نومٌ ويقظة في آن واحد. لكنّ أحلام الليل تختلف عن أحلام النهار، ولو أمكنني أن أسمي أحلام النهار "أُحيلاماً" لسمّيتُها، وهي جمع "حُلَيم" أي الحلم مصغراً، كما يفيد النحو العربي. أما أحلام الليل فهي بروق تلمع في عمق الظلام وعلى مرتفعاته، في قلب الأزل الذي هو البدء والمنتهى، في أغوار النفس التي لا تخوم لها. لكنّ أحلام الليل والنهار غالباً ما تتلاقى في رأسي، أنا الحالم، فلا أجد من فروق بيّنة بينها، ما خلا أن احلام النهار تعبر بسرعة وغالباً ما تتلاشى في الهواء. أما أحلام الليل فتملك طقوسها وإيقاعها المتهادي حيناً والمتقطع حيناً، ومناخها الظليل ورهبتها التي تجعلني عاجزاً عن الخروج منها بسرعة. وقد أحتاج في أحيان الى دقائق لكي أخرج منها وألملم نفسي وأكون كمَن ينتقل من عالم الى آخر في حال من الاضطراب الخفيف.

عبده وازن

كأنما الأحلام وُجدت لليل، الليل الغريب، الليل المنبسط حيناً مثل صحراء، والمتموّج مثل بحر يستعيد نفسه دوماً. أحلام الليل هي التي تمنح الليل معناه الملغز، غموضه وإشراقه الخفي. بل هي التي تضيء ما لا ينام فينا، الهنالك والهنالك، الماوراء الذي هو الماقبل والمابعد. كأن لا ليل بلا أحلام، الليل هو ساعة يقظتها، ساعة يقظة الروح التي تظل مجهولة مهما قيل عنها. لا أقصد هنا ليل الشاعر القدّيس يوحنا الصليب أو ليل الشاعر نوفاليس، بل الليل الذي من أخلاط وأمزجة وأوهام وهواجس ورؤى وإشراقات تمتزج كلّها لتؤلف روح الليل وجسده. كنت في أحيان، من شدة طغيان الحلم عليّ، أقول لنفسي: إنني ذاهب لأحلم، عوض أن اقول إنني ذاهب لأنام. الحلم أمر شخصي، مثل الحب والحزن والسرور. عندما أحلم فإنما أنا الذي يحلم لا سواي. الليل يفتح كنوزه لي مثلما يفتحها لسواي. لكنّ الباب الذي ألج من عتبته مملكة الأحلام يختلف عن أبواب الآخرين. وفي الليل عندما أحلم أغدو كأنني أؤدي مونولوغاً أحدّث فيه نفسي وأروي لها حكايات غريبة وأرسم لها صوراً ومشاهد لم تخطر لي يوماً.

■■■

لا أذكر متى بدأتُ أحلم، لكنني أذكر، أنّ أمي كانت تقول لنا في طفولتنا، عندما نحلم أحلاماً بشعة، صلّوا الى العذراء مريم واطلبوا منها أن ترمي هذه الأحلام في البحر. كنا في صغرنا نخشى تلك الأحلام التي كان يقال عنها بشعة. ما كان أحد في الحي وبين الأقارب يسمّيها كوابيس مثلاً. بشعة كان يقال عنها فقط. وكنا عندما نسردها لأمي وجاراتها في أحيان، تتشاءم وتصرّ علينا أن نصلّي مرةً تلو مرة ونردد طلبنا الى مريم برمي تلك الأحلام في البحر، ولا سيما في الصباح. أما الأحلام البشعة فكانت في الغالب تدور حول الموت: أشخاص أبصرناهم يموتون في حوادث غريبة، غرقاً أو احتراقاً أو في انقلاب سيارة... كان بعضهم في الحي يفسّر موت الأشخاص في الحلم بكونه حياة جديدة مُنحت لهم. هذا التفسير كان شائعاً. لكنّ بضعة آخرين ما كانوا يأخذون بهذا "التفسير" وحجتهم أن أولاداً رأوا آباءهم ميتين في مناماتهم فماتوا. ولم يكونوا يعدّون مثل هذه المنامات مصادفات، بل كانوا يصرّون على أنها رسائل من الغيب الى الأهل من خلال صغارهم. كانت إحدى جاراتنا تقول: ألا تذكرون كيف رأى مارون، ابن جيراننا، في المنام، أباه ميتاً في ثلاث ليال متوالية، وكيف توفي أبو مارون بعد أسبوع؟ ولا تكتفي بحكاية مارون وأبيه بل تسرد أحلام آخرين وما أعقبها من حوادث جسيمة. كنا نخاف كثيراً أحلامنا ولا سيما اذا كانت عن الموت. المستغرب أن الأحلام ارتبطت دوماً بما تحمل من شؤم. لم يكن أحد يتحدث عن حلم جميل أبصره. أذكر كيف كانت خالتي التي قضت ردحاً من حياتها في أفريقيا، تخاف علينا كثيراً اذا أخبرناها أننا ابصرنا رجلاً أو امرأة ميتين يأخذان منا شيئاً ما، مالاً أو طعاماً أو لباساً... كانت ترتعب حقاً وتوصينا بالصلاة. كان برأيها أن الموتى اذا أخذوا شيئاً من الأحياء في الحلم فهؤلاء سيكونون عرضة للموت، أو المرض. أما إذا أعطى الموتى الأحياء مالاً أو طعاماً فهذه أعطية غالية. أذكر كم كنت أفرح عندما كنت أبصر جدي أو جدتي أو أبي في المنام يجزلون عليَّ عطاءاتهم، وكم كنت أخاف فعلاً عندما يأخذون هم مني. في الحقيقة كان الأمر سيّان، فلا العطاء كان عطاء ولا الأخذ كان أخذاً، ولكن لم يكن في وسعنا الاّ أن نخاف أو نفرح. لكنّ رفيقي بسام في المدرسة، الذي كان معفى من تلقي دروس التعليم المسيحي والمشاركة في القداديس لأنه مسلم، فكان يروي لي كيف علّمه أبوه أن الأحلام إذا ظلت سرية ولم تَروَ فهي لا تتحقق البتة. وكان يشير عليه ألّا يروي الأحلام البشعة التي يبصرها

> **يمكن الحلم أن يكون جميلاً جداً عندما تبصر في نومك فتاة تحبّها، وقد يكون أجمل عندما تبصر نفسك تقبّل هذه الفتاة وتضمّها اليك. وقد تبصرها عارية وإنْ عريباً مبهماً، فتتلذذ بها وتحلّ بك رعشة جماع هو أقرب الى الاستمناء العذب، فيدفق ماؤك السري في حال بين النوم واليقظة، وتتخدر...**

لأحد، فهي آنذاك تتلاشى وتغيب. أما الأحلام الجميلة فعليه أن يرويها كي تتحقق. كان هذا الحل رهيباً فعلاً، ولو لم يكن فهمه سهلاً في أعمارنا الباكرة.

إلا أنني ما إن بلغت سنّ المراهقة حتى رحت أكتشف معنى آخر للحلم. يمكن الحلم أن يكون جميلاً جداً عندما تبصر في نومك فتاة تحبّها، وقد يكون أجمل عندما تبصر نفسك تقبّل هذه الفتاة وتضمّها اليك. وقد تبصرها عارية وإنْ عريباً مبهماً، فتتلذذ بها وتحلّ بك رعشة جماع هو أقرب الى الاستمناء العذب، فيدفق ماؤك السري في حال بين النوم واليقظة، وتتخدر... هذه الأحلام التي كثيراً ما راودتني، دافقة أو من غير دفق، لم أكن أخبر بها أمي، فلا خوف هنا ولا موتى بل رغبات أولى تتفجر من تلقائها. وكنت دوماً أتحاشى الفضيحة التي يتركها المنيّ على سروالي الداخلي والبيجاما في أحيان فكنت أنسلّ سرّاً الى الحمّام وأغسل البقعة بالماء ثم أعود الى الفراش رطباً الى أن أخلع السروال صباحاً وقد زالت عنه آثار "الجريمة" ولو غير كاملة. أجمل صفة وجدتُها لمثل هذه الأحلام الدافقة هي "الأحلام الرطبة" بحسب التعبير الأميركي. وكم كنا نتندر نحن الفتيان بهذه الأحلام وكان واحدنا يسأل الآخر: مَن ضاجعتَ هذه الليلة؟ فيردّ: فلانة. وكنا فعلاً نتخيّل أنفسنا لحظة النوم نضاجع فلانة، فتاة أو امرأة، كنا نتحرق الى مشاهدتها عارية.

■■■

عاش الحلم معي منذ تلك الأعوام، عشت معه، عشنا معاً، كبرنا معاً، ترافقنا، خنته وخانني، غادرني أشهراً طويلة، بل غادرته في الليالي التي أسمّيها ليالي الأرق. أنت لا تحلم إذا لم تنم. يجب أن تنام كي تحلم. أحلام اليقظة تتواطأ أنت في صنعها. تركّبها كما تشاء وتفعل فيها ما تشاء. تقتل، تضاجع، تتخيل نفسك ثرياً... إنها "فانتسمات" بحسب علم النفس. أما أحلام الليل فهي التي تصنع نفسها وتصنعك. في أعوام قاتمة غادرني النوم ولم أدرِ ما السبب ولم أبحث عنه. كنت أحياناً أنام نوماً متقطعاً، لا تكاد تغمض لي عين حتى أستيقظ. رحت أشرب الكحول بوفرة، ثم لجأتُ الى حبوب النوم. في مرات لم يكن يغمض لي جفن، ولا لحظة. ما كان أقسى تلك الليالي. تنتظر الفجر لتشعر فقط أن الليل مضى. لا تنتظره لتستيقظ فأنت لم تنم أصلاً. لجأت الى "كريات كياس" الفرنسية وهي من شمع يضعها المرء في أذنيه فتوقعه في حال من الصمم الخفيف. تنقطع الأصوات لكنها لا تغيب تماماً. هذه الكريات كثيراً ما استخدمتُها خلال الحرب، في الليل كما في النهار. وكم من مرة تمنيتُ لو أنني أصمّ. كل هذه الأحابيل كانت موقتة. الى أن استعدتُ النوم، لا أعلم كيف. ثم استعدتُ عادتي القديمة: الحلم. لعل النوم هو الذي يحكمنا، مثله مثل الأرق. تنام في أحيان بلا سبب. تنام في وقت ينبغي أن تكون صاحياً فيه. قبل الظهر مثلاً. أحيانا لا تدري ما الذي يجعلك تستيقظ باكراً جداً، فجراً وقبل الفجر. إنها لحظات لا تنسى. العالم في الفجر هو غيره في النهار أو الليل. السماء هي غيرها، ولا سيما في الصيف، آخر العتمة، أول الضوء، الزرقة المتراوحة بين قتام خفيف ووضوح كاب.

مرت أعوام كان النوم فيها صديقي وكذلك الأحلام. عشية إحدى الليالي وجدتُ نفسي أرِقاً وعاجزاً كل العجز عن النوم. راحت الحال تتفاقم، في الليل وفي النهار: أحاسيس غامضة، حزن في ضوء الشمس، كآبة لا حد لها، قلق، خوف، غثيان، شلل في عمق الروح، تعب منذ أول النهار، رغبة في الاختفاء... خلال عام من الاكتئاب غاب النوم مرة أخرى، غابت الأحلام وانقطع شريطها. قالت الطبيبة إن هذا الاكتئاب ناجم عن اكتئابات صغيرة ترجع الى أعوام بعيدة. لعلها تسمى اكتئابات "مقنّعة". راحت تذكّرني بحالات من الاضطراب الخفيف كانت تنتابني متقطعة ولم اكن أعيرها اهتماماً. ذكّرتني بأحزان لا سبب لها، بهواجس صغيرة ومخاوف لم أكن أدري من أين تأتي... وما إن بدأتُ تناول دواء يدعى "أنافرانيل" حتى رحت أستعيد نفسي. تلاشى الاكتئاب رويداً رويداً، لكنه لم يغب تماماً. ترك ما يشبه الطيف الذي ظلّ يتردد. وحان وقت وقف الدواء. أوقفتُه. وبعد نحو عامين عاودني الاكتئاب ولكن أقل احتداماً أو ضراوة. طلب الطبيب مني أن استعيد "الأنافرانيل". استعدتُه. علّمني الطبيب كيف عليّ أن أوقف هذا الدواء عندما أشعر أن لا حاجة بي اليه. وقال: أولى علامات عودة الاكتئاب الأرق أو اضطراب النوم، أي انقطاع الأحلام. أنت تراقب نفسك وتتناول من الدواء ما تراه ملائماً. بعد جراحة القلب المفتوح توقفت الأحلام. أوقف الطبيب دواء "الأنافرانيل" وأوصاني بتناول "سيبراليكس". عاد النوم أكثر مما من قبل. انقشعت الغيوم التي كانت تتلبد حيناً تلو حين في سماء العينين. عادت الأحلام أكثر مما من قبل أيضاً. باتت تهطل كالمطر. أحلام. أحلام. ما إن أغمض عينيَّ حتى تتوالى على تلك الشاشة الداخلية التي لا أعرف ماذا أسميها. أحلام وكوابيس، أضغاث أحلام، شذرات أحلام، تخيّلات، تهيوءات، رؤى... أما أحلام اليقظة، أو الفانتسمات، فاستعدتُها أيضاً بلهفة.

بات بيني وبين الحلم صداقة شديدة، متينة، لعلها أقوى من الصداقة التي بيني وبين النوم. أعرف أن لا حلم بلا نوم وأن النوم يمكن أن يحلّ بلا أحلام، أو بأحلام لا يتذكرها النائم، كما يقول علم النفس. الحلم هو الذي يسحرني، يسحرني أكثر من النوم، حتى بتّ أقول بالسر كلّما دبّ فيَّ النعاس: إنني ذاهب الى الحلم. ذاهب لأحلم، لا لأنام. وكم خطر في البال أن أقول للساهرين: تصبحون على خير، لقد نعستُ وأريد أن أحلم.

"الحياة حلم"

ليس الحلم وجهاً من وجوه الحياة، الحلم هو الحياة نفسها، الحياة بصفتها حياة أخرى. لا أستعير هنا مقولة غولدوني "الحياة حلم". هذا ما لمستُه خلال أعوام وعشته من دون أن أبرره أو أسعى الى تأكيده. ولم أَبدِ يوما كبير اهتمام في تفسيره. لستُ عالماً نفسانياً لأؤكد مثل هذا الافتراض. لست طبيباً ولا فيلسوفاً ولا عالماً فلكياً ولا ساحراً ولا نبياً... إنني الحالم. الحلم حياة أخرى تضاف الى الحياة. حياة في النهار وحياة في النوم. النوم ليس زمناً ضائعاً إذا سكنته الأحلام. نوم بلا أحلام هو زمن ضائع، ووحدها الأحلام تمنحه معنى الحياة، معنى حياة تبدو متخيلة بينما هي في العمق حياة داخلية، لا عبث فيها ولا سأم ولا تعب ولا ندم ولا... يربح الحالم حياتين إذاً، حياة يعيشها هو، وحياة هي تعيشه. لكنهما حياتان متداخلتان على رغم اختلافهما أو عدم تشابههما ظاهراً. في أحيان يلتبس الأمر عليَّ بين ما عشته وما حلمته. أبصر مشهداً فأظن أنني أبصرته سابقاً. أسمع حكاية فيخيَّل إليَّ أنني أعرفها. حتى الأماكن تلتبس عليَّ. مرةً رحت أبحث عن مقهى التقيتُ فيه فتاة فلم أجده. كنت حلمتُ أنني التقيتُ هذه الفتاة في مقهى اختلقه حلمي. مرةً عاتبتُ صديقاً لأنه لم يأت الى موعد فقال لي إنّ ما من موعد كان بيننا. أمور كثيرة تحصل في الحلم أظنّها حصلت في الواقع، والعكس أيضاً. هذه الحال، حال الالتباس تبهرني. قد يظن بعضهم أنني أهذي ولكن لا، هذه حقيقة، حقيقة لا معقولة، لكنها حقيقة. كم أحب هذا الخيط الواهي الذي يفصل بين هاتين الحياتين، بين الحياة والحلم. خيط واهٍ لكنه لا ينقطع. إذا انقطع يحدث أمر رهيب: هذا ما قد يسمّى الجنون أو الهذيان

> **عاقبني فرويد وعاقب أمثالي وحرمنا نعمة الخيال والتوهم الجميل عندما أعاد جذور الحلم الى اللاوعي كما فهمه هو. لكنّ عالِماً عظيما مثل يونغ ردّ الينا مقداراً من الأمل وأحيا فينا بعضاً من معتقداتنا البدائية**

أو البارانويا أو الموت. هنا أتذكر هذه المقولة البديعة: "والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا". كأن الموت هو ولوج عالم الانتباه، عالم اليقظة الأخرى، عالم النيرفانا التي هي اليقظة التامة، عالم الحلم الذي هو الحياة الأخرى.

كم كان يستهويني التأويل القديم للحلم. وما زلت أميل رغماً عني الى نظرة الشعوب البدائية الى الحلم، وكذلك الى التصورات التي ارتآها أهل الحضارات الغابرة، في بلاد ما بين النهرين ومصر واليونان والهند، وكلها تلتقي حول الطابع الميتافيزيقي للحلم. لكنّ هذه المقاربات أُسبغ عليها لاحقاً التأويل الخرافي والأسطوري، ولا سيما بعد الثورة التي أعلنها علماء النفس وفي مقدمهم فرويد. عاقبني فرويد وعاقب أمثالي وحرمنا نعمة الخيال والتوهم الجميل عندما أعاد جذور الحلم الى اللاوعي كما فهمه هو. لكنّ عالِماً عظيما مثل يونغ ردّ الينا مقداراً من الأمل وأحيا فينا بعضاً من معتقداتنا البدائية.

كانت الأحلام في الأزمنة القديمة حيّز اللقاء بين الآلهة والبشر. تنزل الآلهة في الليل من عروشها وتزور بالسرّ، البشر النائمين، تبلّغهم رسالة أو تشي لهم بأسرار. لم تكن من علاقة مباشرة بين البشر والآلهة خارج الاحلام. وكان الآلهة يسمَّون في أحيان قوى الغيب أو قوى المافوق والماوراء، والحلم هو أداة التواصل بين الهنا والهناك، بين الأرض والسماء، بين الظاهر والخفي... أما الحالمون فكانوا هم الوسطاء بين الآلهة والبشر. لم يكن كل الناس بحالمين "موهوبين"، ليسوا جميعاً مهيَّئين لمثل هذه الوساطة. والحالمون يجب أن يكونوا من خيرة البشر، صالحين ومنزّهين عن العيوب والشرور، لتزورهم الآلهة، آلهة الخير. أما الأشرار فلا يزورهم سوى الشياطين. الشرير يتصل بالأشرار وأرباب الخير بالأخيار. إلا أن التواصل بين الآلهة والبشر كان يبادر به الآلهة أنفسهم. البشر ليسوا هم الذين "يظهرون" على آلهتهم أو يتراءون لهم. لكنهم كانوا يناديونهم ويصلّون لهم كي يزوروهم. وراجت في حضارات عدة ظاهرة النوم في المعابد والهياكل وعلى أقدام تماثيل الآلهة. كان الصالحون يلجأون الى هذه "الحيلة" بغية تلقّي الأحلام والوحي والرسالة. كان مثل هذا النوم في الأماكن المقدسة القديمة أشبه بـ"التشفع" لدى الآلهة لتظهر في أحلام الصالحين. كان الإله بحسب الأسطورة الاغريقية، يحلّ على النائم وبغية التأكد من يقظته في قلب الحلم، يسأله: أأنت نائم؟ وإن لم يجب يغادره. هذه الطريقة في التواصل تُظهر أن على الحالم أن يكون يقظاً في نومه، مستعداً لتقبّل الزيارة والرسالة. كان الحلم في معنى ما، يقظة في صميم النوم.

كم كانت تبهرني هذه المقاربات القديمة، بحقائقها وأوهامها، بأسرارها الدفينة وخرافاتها. إنهم الآلهة على تماس شبه دائم مع البشر، في عمق الليل. لم يجر كلام عن أحلام يقظة وأحلام في أوج النهار. الليل هو معترك اللقاء. وكانت شعوب عدة تعتقد أن الروح تغادر عند النوم جسد النائم وتروح تجوب الآفاق مكتشفةً ما خفي من حقائق وأسرار. أما الجسد عندما تغادره الروح، فلا يبقى فيه سوى الأنفاس، الى أن تؤوب الروح من تطوافها الذي قد يشمل الأرض أيضاً وليس السماء فقط. وكان بعض البدائيين لا يفرّقون بين النوم والموت، ففي كليهما تغادر الروح البدن، فإما أن ترجع اليه وإما ألاّ ترجع ويحدث ما يسمّى الموت حينذاك. ويقال إن فكرة وجود الروح نشأت لدى البدائيين من خلال مراقبتهم أنفسهم أو أرواحهم عند النوم. فالأحلام التي كانوا يبصرونها في نومهم والمنامات العجيبة والظواهر الخارقة كانت تجعلهم يتخيلون وجود الروح في أبدانهم. لعل هذا التخيل حملهم على الاعتقاد بأنّ كل ما في

النهار
83 سنة

لوحة لبول دلفو.

الدنيا له روح وجسم وبأن العالم تسكنه أعداد لا تحصى من الأرواح، وهي خيّرة وشريرة. أما الآلهة فهي أرواح نقية وسامية وذات قدرات فائقة أصبحت محلّ عبادة ورهبة أو خشية.

كان أثر الأحلام يبلغ مبلغه في حياة البشر الأقدمين حتى ليأخذوا بها في حياتهم اليومية والواقعية. كان البشر لا يعجبون من رجل يخاصم رجلاً آخر، قريباً له أو من أهل الحي، جراء رؤيته إياه في الحلم يعتدي عليه أو يسيء اليه. وكان أحدهم يعاتب صديقاً له على خطأ ارتكبه ضده في الحلم. وكان الذين تقع عليهم التهمة لا يجرؤون على انكار هذه التهمة التي كيلت لهم، فالحالم هو الشاهد الأصدق وما دام الحالم أبصر في الحلم ما يرويه فلا بد للمذنب من الاعتذار. وكم من محاكمات جرت انطلاقاً من أحلام ولم يكن على المحكومين أن ينكروا فعلتهم. بل إن حروباً وقعت جراء أحلام خضعت للتفسير المصيب أو الخاطئ. واستوقفني عرف لدى إحدى القبائل البدائية كان يُجيز للرجل مضاجعة أيّ فتاة أو امرأة حلم أنه ينام فوقها أو ترقد هي تحته، إنها تصبح من نصيبه ما دام قد قام بينهما وصال. هذا العرف لو طُبّق في زمننا لكان لي من العشيقات كثيرات، حلمت أنني اضاجعهنّ.

القوى البدائية

كان يبهرني التفسير القديم للأحلام، وما زلت حتى اليوم آخذ منه ما يفسر أسرار الأحلام وطبيعتها الغامضة. وما زلت أعتقد كل الاعتقاد أن الأحلام هي خيط يصلنا بالماوراء أو بالغيب كما يقول الأقدمون. وهذه الكلمة بديعة أصلاً: الغيب. إن فيها من الغياب والحضور ما يجعلها تعني حالاً فريدة من أحوال الكون الذي وُجد لئلا يُسبَر. وليست الذات، ذات الانسان الحالم، أقلّ غموضاً من الغيب نفسه، إن فيها من العمق ما يستحيل سبره. الأحلام تضيء جوانب من الطريق التي تفضي الى الغيب، المكان الذي

> **استوقفني عرف لدى إحدى القبائل البدائية كان يُجيز للرجل مضاجعة أيّ فتاة أو امرأة حلم أنه ينام فوقها أو ترقد هي تحته، إنها تصبح من نصيبه ما دام قد قام بينهما وصال. هذا العرف لو طُبّق في زمننا لكان لي من العشيقات كثيرات، حلمت أنني اضاجعهنّ**

هو اللامكان. إنني أدرك بما أدعوه الحدس، السرّ الخفي للأحلام. وهو ما يفتنني فيها. وهو ما جعلني أكتشف في جهود يونغ مقولات هي بمثابة اللقى العجيبة. لست من أتباع يونغ الكثيرين في العالم، إنني مجرد واحد من قرّائه السريين، المعجبين به والآخذين بالكثير من آرائه. لم أقرأ كل ما كتب بل ما بدا يعنيني أو يمكنني فهمه لديه، من مقارباته الروحانية والباطنية ونصوصه في الأحلام واللاوعي والنفس والماوراء. وكان عليّ أن أنحاز اليه في مسألة تفسير اللاوعي والأحلام في خلافه مع فرويد، العالِم الكبير الآخر. يونغ عالِم وأكثر، عالِم وساحر، عالِم ورؤيوي، عالِم ونبي، لكنه نبي بلا رسالة نزلت عليه من السماء. رسالته تلقّاها من الإصغاء الى ذاته التي هي مختصر الكون. كان يونغ قريباً من الفلسفة والدين والماورائيات ومعتقدات الشعوب والحضارات القديمة. لم يكن عالِم نفس وطبيباً فحسب. وهذا ما تجلى في نصوصه ذات البعد الفلسفي والتأملي والاستبطاني. قراءة نصوص يونغ هذه تتيح لقارئه أن يعود الى نظريات سابقة في الحضارات والفلسفات القديمة.

الأحلام بحسب يونغ تكشف أسرار الحياة الداخلية، في كل ما تحمل هذه الحياة من رموز ومعان ورؤى وأصداء ورجْع أصداء. كانت هذه المقاربة اليونغية قد جذبتني وتوقفتُ عندها طويلاً. أسرار الحياة الداخلية، أسرار حياتي بصفتي حالماً وأسرار حياة أخرى لا حدود لها في الزمن البشري، حياة تضرب جذورها في حياة الأسلاف الذين لا نعرفهم. هكذا رأى يونغ على خلاف فرويد، أن الأحلام لا تمثل الرغبات المكبوتة الكامنة في اللاوعي والمنبثقة منه فقط، بل تعبّر عمّا خمد في الذات العميقة للانسان ويحتاج الى نار البصيرة لينبثق فيكتمل من خلاله شخص الحالم. لا تسعى الأحلام الى إرضاء الرغبات المكبوتة فحسب، بل إن معانيها تدلّ على غاية تحاول الوصول اليها، لتخبر الحالم أين يمضي به اللاوعي. وفي نظر يونغ لا تنبئ الأحلام عن المكان الذي أتى الانسان منه فحسب وإنما أيضاً عن المكان الذي يسير اليه. ويجد يونغ في الأحلام ما يصفه بـ"التعويضي" و"التصحيحي"، فالأحلام تكشف عن "القوى البدائية" المستقرة في اللاوعي والساعية الى التعبير عن وجودها، مما يتيح لها فرصة الاندماج في كيان الشخصية الانسانية. اللاوعي أو العقل الباطن كما يسمّيه يونغ، وهي أجمل تسمية، الى كونه ذاكرة الماضي، هو مسكب بذور الأفكار والمواقف والأحوال النفسية التي تتجلى في المستقبل. علاوةً على الذكريات المنبعثة من ماضٍ سحيق يظهر في أفق الوعي، فالأفكار واللمعات الابداعية الحديثة يمكنها أيضاً أن تخرج من فضاء اللاوعي، وهي أفكار ولمعات لم يعرفها أفق الوعي من قبل. إنها تنمو وتترعرع في أعماق العقل الباطن المعتمة كما تنمو زهرة اللوتس، لتشكّل الناحية الأهم من النفس الانسانية. يتحدث يونغ عما يسمّيه "إبداع الأحلام" الذي يتجلى في اللغة الرمزية للأحلام نفسها. والصور والأفكار التي تتضمنها الأحلام لا يمكن تفسيرها في ضوء لغة الذاكرة فقط، فهي تعبّر عن أحوال جديدة لم تبلغ عتبة الوعي من قبل. والأحلام في نظر يونغ تُطلع الإنسان على مواقف ووقائع قبل أن تحصل بزمن طويل، وهذا ليس من قبيل المعجزات بالضرورة، ولا هو شكل من أشكال الإدراك المسبق. فثمة أزمات كثيرة في حياة الانسان ذات تاريخ لا شعوري طويل، والانسان يتجه نحوها خطوةً خطوة جاهلاً الأخطار التي تتراكم. لكنّ ما يعجز العقل الواعي للانسان عن إدراكه، غالباً ما يدركه عقله الباطن الذي يمكن أن يمرّر ما يعلمه، عبر تلك الأحلام التي تستطيع آنذاك أن تحذّر الانسان. في نظر يونغ تملك الأحلام في أحيان، قدرة على الحدس والتنبوء فتجعل الحالم يتوقع حوادث تقع في المستقبل. أما الكشف الذي أحدثه يونغ فهو ما سمّاه "اللاوعي الجماعي" أو "اللاشعور الجمعي" لدى الانسانية جمعاء، ورموزه تظهر من خلال الأحلام نفسها. هذا اللاشعور الجمعي يتكوّن كما يقول، من عناصر فطرية موروثة تعبّر عن نفسها في الأحلام عبر صور ذات طرز بدائية.

ومن المحتمل أن هذه الطرز تميز طبيعة البشر وعاداتهم القديمة والمطلقة والمتحررة التي تحدد سلوكهم، وهي تتكرر فيهم مرات كثيرة حتى لتترك في لا شعورهم أثراً من المتعذر محوه. كثير من هذه الطرز والصور يرتكز الى معطيات الأديان أو الأساطير أو القصص الشعبي.

لا أبحث في الحلم هنا ولا أتقصى حقائقه وظواهره كما يفعل العلماء، قصارى ما أكتب مقاربة الحلم كما عشته وأعيشه وكأنني مريض مصاب بداء هو الحلم. في ظني أن مَن لا يحلم لا يمكنه أن يدرك سرّ الحلم، مَن لا يبصر المشاهد التي يتيحها الحلم في ما يشبه فيلماً سينمائياً، لا يمكنه أن يفقه لغزه. وجوه وأشخاص أو أطياف أشخاص تبدو كأنها تُعرض في شريط هو أقرب الى "النيفاتيف"، واقعية ولكن على مقدار من الغرابة، مناظر ناطقة أو صامتة، صور تهتزّ حيناً وتجلو حيناً، بالألوان النقية أو الباهتة أو بالأسود والأبيض، حديثة أو قديمة كما لو أنها أُخرجت للحين من علب الذكريات. أما ما يمكن تسميته "ديكورات" الحلم فهي أغرب ما يمكن أن تصادفه عين. يبصر الحالم مشاهد مركّبة تركيباً غرائبياً يستحيل إيجاد ما يماثله وكأن الأشياء والعناصر تتلبس هنا أشكالاً غير مألوفة لا يعلم الحالم مَن ابتدعها أو "ركّبها" وكيف. الثنائيات هنا، على سبيل المثل، التي لا يمكن أن تلتقي، تتواشج وتتداخل في طريقة فريدة جداً. إنها المصادفات البصرية التي تصنع خصائص المشهدية الحلمية التي تفوق الوصف. وعندما يستفيق الحالم ويفتح عينيه لا بد من أن يسأل نفسه: كيف أمكن أن أرى ما رأيت؟

لا يمكن استجلاء حقيقة الحلم في منأى عن الحلم نفسه. هذا أصلاً ما قال به علماء النفس والأعصاب. فرويد كان حالماً كبيراً وكذلك يونغ وابن سيرين والنابلسي... ولئن كنت أميل شخصياً الى يونغ لغايات في نفسي فهذا لا يعني البتة أنني لم أتوقف عند فرويد وقبله، كما أشرت، عند الأديان والحضارات التي قاربت الأحلام وحدبت عليها. كان فرويد رهيباً في كتبه التي تناول فيها الأحلام وخصوصاً كتابه "علم الاحلام" الذي أحدث بدءا من عام صدوره 1900 ثورة في علم النفس والفلسفة والطب، وكان بمثابة العلامة التي أشرقت في سماء البشرية وألقت نوراً باهراً على عالم اللاوعي الكامن في عمق الانسان. وبدا علم النفس كأنه كان ينتظر فرويد ليضيء لغز الحلم ويفكك أسراره وفق منهج علمي، ويفتح الطريق أمام علماء النفس ليوافقوه في كشفه أو ليختلفوا معه ويتمردوا عليه. لكنّ جميع هؤلاء لم يمكنهم إلاّ أن يعترفوا بما سمّاه فرويد "العلاقة المباشرة بين الحلم والرغبة"، حتى وإن فهموا الرغبة، كلٌّ على طريقته. وبدت مقولة فرويد صريحة: "الحلم هو تحقيق، مقنّع ام غير مقنّع، لرغبة، مكبوتة أو غير مكبوتة". يملك الحلم في نظر فرويد معنى يكشف الرغبة اللاواعية داخل الانسان، لكنّ هذه الرغبة تعبّر عن نفسها في طريقة مقنّعة جراء مواجهتها الرقابة الداخلية. أما الأقنعة التي يستخدمها الحلم فلا ترجع فقط الى كونها أداة تغافل الرقابة بل تعود أيضاً الى طبيعة الطبقات السفلى من العقل. وهذه لا تخضع لقواعد المنطق التي ترين على العقل في أوقات اليقظة، بل تعمل بحسب منطق هو أقرب الى منطق الطفل والانسان البدائي القديم. ويمكن القول إن الحلم وفق فرويد يزخر بمحتويات ثلاثة: اللاوعي المتكوّن من رغبات وغرائز طفولية مكبوتة، بقايا التجارب التي عاشها الانسان خلال اليوم أو الأيام القليلة السابقة، الأحاسيس والإثارات الحسية التي يتعرض لها الانسان الحالم أثناء النوم. وما يمكن استخلاصه أنّ أهم تكاوين الحلم تنبع من صميم الحوافز والرغبات التي "تنوجد" في المراتب الطفولية للنمو النفسي وخصوصاً في الدورين الما قبل أوديبي والأوديبي. هكذا ترتبط الاحلام بالرغبات الجنسية الأولى المكبوتة وتغدو كأنها متنفّسها وطريقها الى الظهور والسعي للإرضاء. ولعل المختصر المفيد أن الحلم هو "السبيل الملكي" الذي يوصل الى اللاوعي عند الانسان. إنه الأداة الرئيسة لاستكناه اللاشعور الفردي الذي يعدّه فرويد مكمن الحوافز والمكبوتات والغرائز.

مع يونغ ضدّ فرويد

كان عليَّ أن أنحاز الى يونغ في خلافه مع فرويد، انحيازا غير علمي طبعاً، فأنا لست عالم نفس ولا محلل أحلام، وما يشفع بي في هذا الشأن أنني حالم، حالم ذو مراس ومعرفة حدسية واختبار. حتى قراءتي لهذين العالِمين، فرويد ويونغ، لم تكن منهجية، قرأتُ ما أردت أن أقرأه وما اخترتُ أن أقرأه ولا سيما ما يتعلق باللاوعي والأحلام. وأعترف أن يونغ أثّر فيَّ وهزّني. يونغ ابن القسيس وحفيد القسيس، المتصوف والفيلسوف والعرفاني والرؤيوي والحالم، أسرني بنصوصه الروحانية التي يشطح فيها شطح الصوفيين ولا سيما كتابه "حياتي: ذكريات، أحلام وأفكار" و"تحولات النفس ورموزها" و"الأحلام". تمثلت إحدى نقاط الخلاف الجوهري بين يونغ وفرويد، أستاذه السابق، حول ما يسمّى "الليبيدو"، فيونغ رفض التصوّر الفرويدي الذي يجعل الأصل الجنسي أساس الطاقة النفسية معتبراً الليبيدو طاقة حيوية تُضاف اليها غرائز أخرى مثل الجوع والحاجة الى الثقافة. أما اللاوعي الذي بدا لدى فرويد حيّزاً للمكبوت، فهو بحسب يونغ يتضمن أبعاد النمو والتطور وحوافز البحث عن المعنى. اللاوعي "ذكي" في يونغ ويسعى الى التطور والتبلور. أما الفكرتان الأخريان اللتان ترتبطان بعضاً ببعض فهما "القناع" و"الظل". مفردة "قناع" أو "برسونا" النابعة من المسرح الإغريقي تعني فعلاً القناع الذي يضعه الممثلون على وجوههم وهم على المسرح، وهو بصفته قناعاً، لا يعبّر عن الفرد بواقعيته وذاتيته بل عمّا يفكر هو فيه أو يفكر الآخرون في أنه هو. أما الوجه المقابل فهو "الظل" ويوازي الجانب الخفي من الشخصية، الذي يضمّ في اللاوعي معظم عناصر الحياة النفسية، الشخصية والجماعية، التي لا تعاش جراء عدم توافقها مع نمط الحياة الذي يتم اختياره بوعي. يشكل "الظل" إذاً شخصية مستقلة تتعارض مقاصدها مع مقاصد الوعي. هكذا كان على يونغ أن يختلف مع فرويد حول الكثير من آرائه في اللاوعي والأحلام، فالحلم لا يمكن اعتباره فقط فضاء تحقق الرغبات ولا سيما الجنسية منها والمكبوتة، بل هو في نظر يونغ يؤدي وظيفتين أخريين، الوظيفة التعويضية أو التكميلية التي تعيد الى الشخص توازنه السيكولوجي، والوظيفة التطلعية او التنبوئية. والحلم يوفر للشخص ما لم يتيسر له في حياة اليقظة.

لعل ما يجدر تذكره هنا أن علم الأحلام لم يكن يوماً وقفاً على فرويد ويونغ ومَن سار على منهجهما، فالعلماء الذين تولّوا تحليل الأحلام علمياً وطبياً لا يُحصَون، وخصوصا بعد الثورات التي أعقبت ثورة فرويد وما نجم عنها من مفاهيم حديثة، بدا بعضها معارضاً للنظرية الفرويدية. وادّعى بعضهم تخطي فرويد وتحديثه ولكن انطلاقاً منه ومن أفكاره واختباراته التي لا يمكن التخلي عنها. قد يكون من الخطأ إذاً حصر تأويل الحلم في دائرتَي فرويد ويونغ، فالفلاسفة والمتصوفة ورجال الدين الذين سبقوهم في هذا القبيل هم كثرة، وكذلك علماء النفس الذين أعقبوهم وهم ليسوا بقلة وبعضهم ناقشهم واعترض على بضع من أفكارهم، وتعرّض فرويد خصوصاً لحملات مناوئة كادت أن تلغي آراءه وتدحضها، ومنها على سبيل المثل حملة المفكر الفرنسي ميشال أونفري الذي كاد يدعو الى إحراق فرويد.

> **يونغ عالِم وأكثر، عالِم وساحر، عالِم ورؤيوي، عالِم ونبي، لكنه نبي بلا رسالة نزلت عليه من السماء. رسالته تلقّاها من الإصغاء الى ذاته، أسرني بنصوصه الروحانية التي يشطح فيها شطح الصوفيين ولا سيما كتابه "حياتي: ذكريات ، أحلام وأفكار" و"تحولات النفس ورموزها" و"الأحلام"**

أصداء فلسفية

في الحقبة الإغريقية، إن استثنينا العالِم أرطميدورس، صاحب أول كتاب في تفسير الأحلام، الذي لنا عودة اليه في تناول هذا النوع من الكتب، أبدى بضعة فلاسفة اهتماماً كبيراً بالأحلام واختلفوا حولها نظرياً. أفلاطون مثلاً، قال بصدق الرؤيا وتنبوئها وعلاقتها بالغيب، وهي كانت تُعتمد في المحاكم لإدانة المتهمين أو تبرئتهم. أما أرسطو فتوغل في مقاربة الأحلام ووضع عنها كتاباً موضوعياً ورأى أن معظم الأحلام تنشأ عن مؤثرات حسية، وتنجم عن أثر الأمزجة والعواطف والنزعات لدى الانسان في تشكيل أحلامه. ويتوقف أرسطو عند الرؤيا الصادقة أو الأحلام التي تتحقق بعد رؤيتها في النوم. أما تحقق الأحلام في نظره فيقوم على عوامل عدة منها: المصادفة التي يلتقي حولها الحلم 20 ←

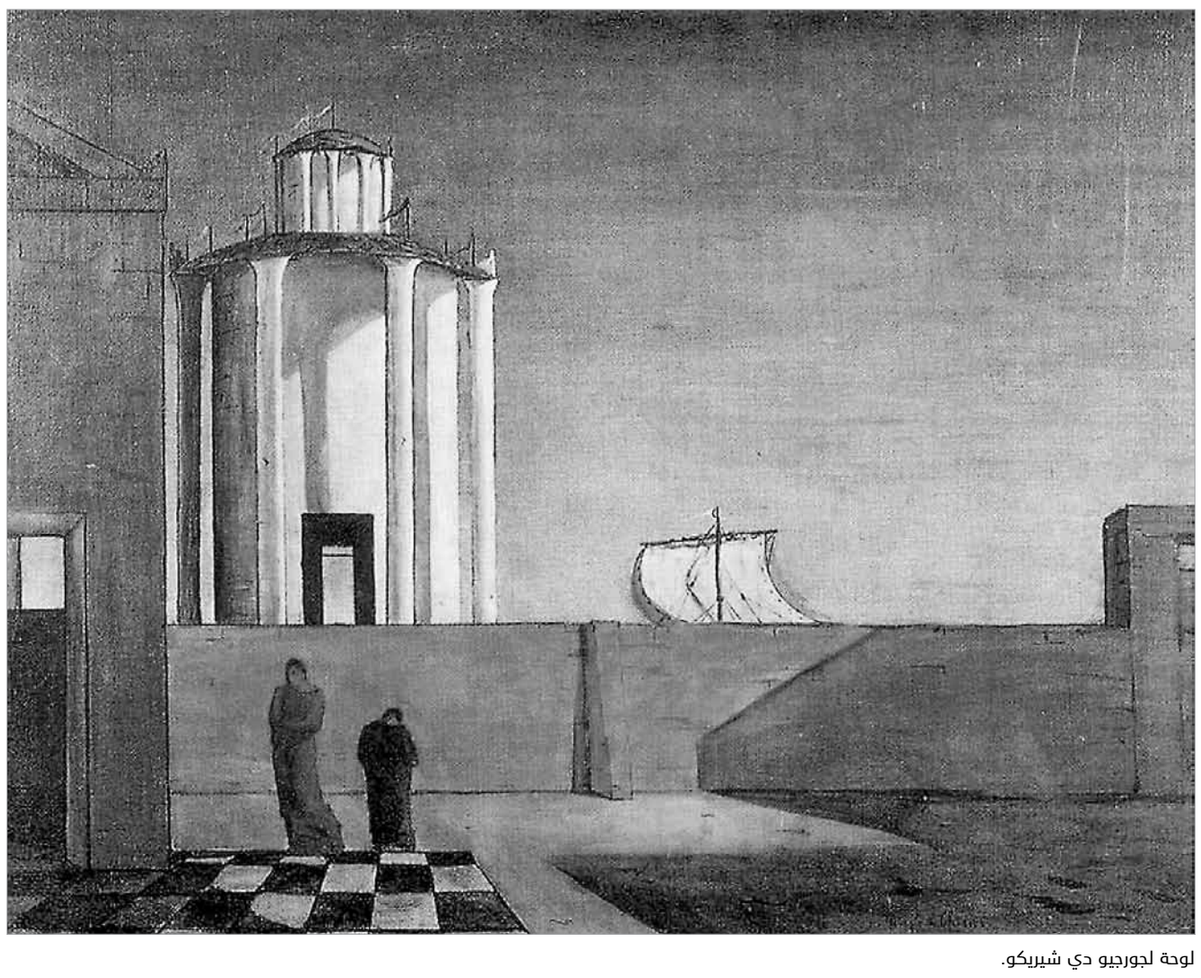

لوحة لجورجيو دي شيريكو.

19 ← والواقع، الإيحاء الذي يجعل من الحلم حقيقة، الشعور المضخم الناجم عن إحساس الانسان باضطراب عضوي أثناء نومه. في رأيه أن الآلهة لا تتواصل مع البشر عبر الأحلام، ولو هي شاءت مثل هذا التواصل لقامت به في وضح النهار وفي طريقة أوضح. أما الرواقيون فعاكسوا أرسطو ودافعوا عن الرؤيا الصادقة معتبرين إياها وحياً إلهياً على طريقة القدماء. فالنفس البشرية في نظرهم تكون خلال اليقظة فريسة الشهوات الجسدية وفي النوم تتحرر منها وتصبح لها القدرة على التنبؤ والعلم الغيبي.

لم تغب الأحلام عن الفلسفة الأوروبية مثلما لم تغب البتة عن الفلسفة الاسلامية والعربية. هيغل وهنري برغسون والقديس توما الأكويني وشوبنهاور ونيتشه وسواهم كتبوا عن الأحلام، كلٌّ بحسب نظرته، ولعل كتاب نيتشه الرهيب "هكذا تكلم زرادشت" ينتمي الى أدب الرؤيا أو فلسفة الرؤيا وإن كانت الرؤيا هنا تنفي وجود إله وتبشّر بموته. أبرز حدث فلسفي في حقل الأحلام عاشه الفيلسوف الفرنسي ديكارت صاحب "الكوجيتو" الشهير: "أنا أفكر إذاً أنا موجود". في مستهل كتاب "الأحلام: السبيل الملكي للاوعي" (دار تشو، باريس 1979) يتناول العالم النفساني الفرنسي فرنسيس باش الأحلام الثلاثة المشهورة التي أبصرها ديكارت ومنها حلم وَصِفت الليلة التي حلمه فيها بـ"الليلة المضطربة"، وهي صادفت ليل العاشر من تشرين الثاني 1916. أبصر ديكارت نفسه يمشي متعباً في الشارع بعدما شعر أنّ أشباحاً ظهرت له، ثم هبّت عليه ريح وحملته في ما يشبه الإعصار ودارت به دورات وهو واقف على قدمه اليسرى. ألفى نفسه يمشي بصعوبة، خائفاً من الوقوع أرضاً، حتى أبصر على طريقه، معهداً مفتوح الأبواب فدخله بحثاً عن راحة ومداواة لألمه. اتجه نحو كنيسة المعهد لكنه أبصر شخصاً يعرفه مرّ به من دون أن يلقي عليه السلام، فعاد خطاه ليحييه، فإذا الريح تهبّ مرةً أخرى وتحمله لتضرب به عرض الكنيسة بقوة. لكنه أبصر في الحين نفسه شخصاً آخر يناديه وسط ساحة المعهد باسمه ويعهد اليه، إن كان سيذهب لملاقاة السيد ن، أن يحمل إليه غرضاً يبغي إرساله اليه. ظنّ ديكارت أن الغرض هو شمامة جُلبت من بلاد غريبة. لكنّ ما فاجأه رؤية أشخاص آخرين يلتفّون حول هذا الشخص ويتحدثون، وكانوا على خلافه هو،

> **ما جدوى تفسير الأحلام في كتب تتناولها الأيدي كما لو أنها مراجع لا بد منها. هل يمكن اختزال الشجرة على سبيل المثل في معنى أو رمز واحد؟ الشجرة التي يحلم بها الحطّاب هل هي نفسها الشجرة التي يراها شاعر أو رسّام أو كاهن أو صيّاد أو تلميذ في حلمه؟ هل تعني الشجرة لابن سيرين ما تعنيه لفرويد أو يونغ؟**

التعِب والمنهك، متماسكي القوام، أقوياء... ثم استيقظ ليجد نفسه ينام على جانبه الأيسر، ما يفسر بشاعة الحلم الذي أبصره. صلّى إلى الله سائلاً إياه أن يقيه شرّ ذاك الحلم. وبعد ساعتين من التأمل في خير العالم وشرّه، نام على جانبه الأيمن. خضع هذا الحلم والحلمان الآخران لمقاربات عدة سعت الى الكشف عن ينابيع فلسفته. لكنّ تحليله الشخصي لهذه الأحلام وبخاصة الحلم الأول كان الأعمق، فهو لمس في هذا الحلم وعيداً منذراً إزاء حياته السابقة التي لم تكن بريئة أمام الله ولا أمام البشر، ومن هنا تبدّى الرعب والهلع في الحلم.

الرؤيا والحلم

الفلاسفة المسلمون والمتصوفة كانت لهم أواصر وطيدة بالحلم أو الرؤيا بالأحرى، ومعظمهم، ما خلا بضعة علماء وبضع فرق باطنية، كتبوا في ميدان الأحلام وبحثوا وتأملوا، ولكن في ضوء المفهوم الإسلامي للرؤيا. والرؤيا هي المفردة الأسلم التي اعتُمدت بصفتها مصطلحاً اسلامياً، على خلاف مفردة الحلم التي غالباً ما ارتبطت بمفردة "أضغاث". مفردة الرؤيا ذات منشأ "كتابي"، يهودي ومسيحي، بحسب التوراة والأناجيل ولا سيما سفر الرؤيا أو رؤيا يوحنا وهي من النصوص الرئيسة التي تعتمدها الكنيسة، عطفاً على رؤى أخرى مثل رؤيا القديس بطرس، رؤيا القديس بولس وسواهما. أما الرؤيا في التوراة فتوزعت على أسفار عدة منها: رؤيا النبي اشعيا، رؤيا النبي ايليا، رؤيا النبي حزقيال، رؤيا النبي دانيال. غير أن مفردة حلم ظهرت أيضا في الأناجيل... إسلاميا وردت مفردة الأحلام، بمعنى ما يراه النائم، ثلاث مرات في القرآن وفي آيتين (يوسف 44، الأنبياء 5)، وعُطفت مرتين على مفردة أضغاث، أما كلمة رؤيا فوردت سبع مرات في ست آيات (يوسف 43، يوسف 5، الإسراء 60، الصافات 104، 105، الفتح: الآية 27، يوسف 100). وفي "لسان العرب" يفرّق ابن منظور بين الحلم والرؤيا تفريقاً بيّناً فيقول: "الحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح، ومنه قول-عز وجل- "أضغاث احلام" (يوسف 44)". في موضع آخر يربط ابن منظور بين الأضغاث والأحلام قائلاً: "وفي التنزيل العزيز "قالوا أضغاث أحلام" أي رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة، "وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين" (يوسف 44) أي ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل لأنها لا يصح تأويلها.

هكذا ارتبطت مفردة أضغاث بالأحلام لأنها لا تفسر ولا تؤول لاختلاطها بعضها ببعض، فأصل كلمة الضغث كما جاء في "مختار الصحاح" هو "قبضة حشيش مختلطة الرطب واليابس، وأضغاث أحلام: الرؤيا التي لا يصح تأويلها". وفي شأن الرؤيا تستخدم كلمة "تعبير" محل تفسير أو تأويل، وجاء في "لسان العرب": "عبر الرؤيا يعبرها عبرا وعبارة وعبّرها: فسّرها وأخبر بما يؤول أمرها". في المعنى الاسلامي هناك تخصيص للمصطلحين: الأحلام أضغاث والرؤيا تعبير، وتم التخصيص استناداً الى القرآن والحديث الشريف، وقد أورد البخاري في صحيحه: "الرؤيا من الله والحلم من الشيطان"، وفي رواية: "الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان" (البخاري). أما في اليهودية والمسيحية فلم يتم الفصل بين المفردتين أو المصطلحين، فرؤيا النبي يوسف في القرآن هي على سبيل المثل، حلم وأحلام في التوراة (تكوين 37:5-11)، وفي إنجيل متى ترد كلمة حلم مرتين في حدثين ربّانيين، الأول عندما ظهر الملاك على يوسف خطيب مريم العذراء في الحلم ليعلن له الحبل الإلهي (متى 1:20)، ثم ظهور الملاك على المجوس في الحلم (متى 2:12) وظهوره مرةً أخرى على يوسف في الحلم أيضاً ليبلغه بالهروب الى مصر بالطفل وأمه مريم فراراً من بطش هيرودوس (متى 2:13). لعل هذا ما يعني أن الرؤيا والحلم في العهدين القديم والجديد (التوراة والأناجيل) لم تتم التفرقة بينهما على رغم تقدم الرؤيا على الحلم لاهوتياً ودينياً. فالحلم حمل في الغالب دلالة التنبيه، وحملت الرؤيا معنى التجلي، على خلاف الاصطلاح الاسلامي. ملاك الله يظهر في الحلم مثلما يظهر في الرؤيا لكنّ الرسالة هي التي تختلف بينهما.

كان لا بدّ من هذه الإشارة التي توضح الفرق بين المصطلحين، الحلم والرؤيا، قبل التوقف عند آراء الفلاسفة المسلمين والمتصوفة، الذين شغلتهم مقولة الرؤيا، وهي آراء فريدة تحمل أبعاداً فكرية وتفاسير تتقاطع مع التأويل الديني وتختلف عنه في أحيان. فمفهوم الرؤيا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم النبوة كما تجلّى في الإسلام. ولعل الفيلسوف الكندي 801-866 م كان من أشد الفلاسفة اهتماماً بقضية الرؤيا والحلم، وهو تفرّد بوضع كتاب أو رسالة بعنوان "رسالة في علة النوم والرؤيا وما ترمز به النفس". وقد سعى فيها الى التعريف بالنوم والرؤيا وهما في رأيه من لطائف العلوم الطبيعية ولا يمكن الباحث الخوض فيهما ما لم يتقن معرفة ماهية النفس وقواها وأفعال هذه القوى. وإن كان النوم يمثّل انصراف النفس عن مباشرة الحواس، فهو درجة من درجات التفكير ولكن التفكير العميق، عطفاً على استخدامه القوة المصورة استخداماً كاملاً. أما تعريف الرؤيا في نظره فإنما يندرج في سياق قوى النفس وهي ثلاث: القوة الحسية والقوة العقلية، وهما على تباعد، والقوة المصوّرة وهي تتوسط تينك القوتين، وتعمل القوة المصوّرة عملها في اليقظة وفي النوم أيضاً. وقال الكندي بالرؤيا الصادقة وبأضغاث الأحلام. الرؤيا الصادقة تنجم عن التهيؤ التام للنفس التي يصفها بـ"العلامة اليقظانة الحية" لقبول الآثار وهي نقية من الأعراض المفسدة. وتتفاوت النفوس بحسب القوة والضعف في القبول. اذا كانت النفس غير مهيأة للقبول كانت الرؤيا بلا نظم، أي تخليطاً، وهي المسمّاة أضغاث أحلام. الفيلسوف الفارابي 870-950 م تطرق إلى هذه القضية في كتابه "الشفاء" وقال إن القوة المتخيلة، مرجع الرؤيا، تحاكي ما يصادف البدن من مزاج، فإذا صادفت مزاج البدن رطباً، حاكت الرطوبة عبر تركيب محسوسات تحاكي الرطوبة كالماء مثلاً، وإذا صادفت مزاج البدن يابساً، حاكت يبوسته بمحسوسات تدل على اليبوسة، وكذا الأمر في الحرارة والبرودة. في "كتاب الشفاء" أيضاً تطرق الفيلسوف ابن سينا إلى الرؤيا. وفي رأيه أن المخيلة تعمل في النوم وفي اليقظة على السواء. لكنّ عملها أثناء النوم قد يكون أوضح وأقوى، فالمخيلة آنذاك متحررة من قيود الحواس الظاهرة ومن العقل. ولم يغفل ابن سينا تأثير الاحساسات العضوية الداخلية التي تجد في النوم وسكون القوى النفسية مجالاً للظهور والنشاط. ويتحدث ابن سينا عمّا يسمّيه "فضيلة التخيل" ويرى أن "المتخيّل في الحلم والرؤيا، المستعد يؤتى له ما يقوى به على تخيلات الأمور الحاضرة والماضية والاطلاع على مغيبات الامور المستقبلية فيَلقى إليه كثير من الأمور التي تقدم وقوعها بزمان طويل فيخبر عنها وكثير من الأمور التي تكون في زمان المستقبل فينذر بها. وقد يكون هذا لكثير من الناس في النوم ويسمّى الرؤيا، وأما الانبياء فإنما يكون لهم ذلك في النوم وفي اليقظة". يعترف ابن سينا بدوره أن أضغاث الأحلام إنما تنشأ عن إحساسات بدينة كاذبة. ويرى أيضاً أن للرؤيا دوراً حاسماً في إثبات وحدة الذات. أما الفيلسوف الغزالي 1058-1111 فرأى أن من عجائب الرؤيا الصادقة انكشاف الغيب بها، وإذا جاز الأمر في النوم فلا يستحيل في اليقظة. فالنوم بحسبه لا يفارق اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات، "فكم من مستيقظ غافل لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه".

هذه قبسات من قراءات شغوفة عن الحلم قمت بها كما كان يحلو لي، بحرية وحماسة ولا سيما في أوج الفتنة التي أشعلها فيَّ سر الحلم وما يحيط به. وكنت أعمد الى جمع كل ما يقع تحت يديّ عن الحلم من كتب ومقالات وقصاصات بالعربية والفرنسية أو مترجمة الى العربية. إنها قراءات انتقائية أتخيّرها لأقع فوراً على ما أنشده. وأعترف أن كتباً عدة لم أقرأ فيها سوى ما دار حول الحلم والرؤيا والنوم... ولعل هنا تتبدى مزايا هذا النص الحر، المفتوح، الذاتي والموضوعي في آن واحد، الذي رسم مسلكه بنفسه بعيداً من أي منهج أو طريقة مسبقة. هذا نص مفتتن بالحلم وما يجاوره، وكذلك بأطرافه الدانية والقصية.

لوحة لجورجيو دي شيريكو.

هل تفسَّر الأحلام؟

هل يُفسَّر الحلم؟ هل "تُعبّر الرؤيا"، بحسب المقولة الاسلامية؟ اختلف العلماء والفلاسفة حول هذه القضية وحول طريقة التفسير والتعبير وغاياتهما، لكنّ الاختلاف لم يعن البتة عدم إمكان التفسير والتعبير، بل إن التجارب في هذا الحقل جمّة. حتى علماء النفس المعاصرون عمدوا الى تحليل أحلامهم وأحلام مرضاهم وصولاً الى الحقائق المكبوتة أو الخفية. في التراث العالمي، لا تُحصى الكتب التي وُضعت في هذا الحقل وهي تزداد على مرّ الأعوام تبعاً لرواج ظاهرة تفسير الأحلام وإقبال البشر عليها في ما يشبه الولع بمعرفة خفايا المستقبل. أما التراث العربي فيزخر بتفاسير عدة بعضها صدر في كتب وبعضها ظلّ مخطوطاً أو شفهياً، ووردت في "كشف الظنون" و"الفهرست" عناوين تصانيف معظمها بات مفقوداً. من أبرز التآليف كتابان هما "تفسير الأحلام الكبير" لإبن سيرين و"تعطير الأنام في تعبير المنام"، واللافت هنا أن هذين الكتابين الفريدين تفصل بينهما قرون، فالإمام ابن سيرين ولد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب في البصرة وتوفي قرابة العام 110، بينما رافق الشيخ عبد الغني النابلسي العصر العثماني خلال نحو قرن فهو ولد عام 1050ه.(1641م.) وتوفي عام 1143ه. (1173 م.) وعاش حياة تختلف كل الاختلاف عن حياة ابن سيرين، رائد علم تفسير الأحلام، وتلقى علوماً ومعارف شتى وخبِر تجارب عميقة في التصوف والثقافة الدينية. ويتبدى الاختلاف بين الكتابين بيّناً، على رغم وحدة مآربهما وغاياتهما، ولا سيما في المفردات والمصطلحات وطريقة التفسير جراء اختلاف العصر، والتقدم الذي شهده القرن السابع عشر في كل الميادين. لكنّ "حداثة" تفسير النابلسي زمناً لم تتخطّ "قدامة" تفسير ابن سيرين الذي ما زال يعرف رواجاً واسعاً على خلاف تفسير النابلسي الذي ظلّ وقفاً على النخبة. غير أن الكتابين يكمل واحدهما الآخر ويحفلان بما يصعب تعداده من تآويل ومعان وشروح ورموز تجعل منهما خير مرجعين في هذا الحقل. وتبدو قراءتهما اليوم ضرباً من المتعة المصحوبة بوافر المعرفة والحكمة.

ابن سيرين

تبدو المقدمتان أو المقدمة و"خطبة الكتاب" اللتان وضعهما ابن سيرين بمثابة مدخل الى كتابه، على رغم صفحاتهما الإحدى والعشرين، مرجعاً من المراجع الرئيسة والقليلة التي استند اليها معظم الذين كتبوا عن الأحلام والرؤيا لاحقاً، وما يسمهما أنهما تضمّان القراءة الاسلامية لظاهرة الأحلام والرؤيا الى قراءات إخرى سابقة، عربية و"أجنبية". وقيل إن ابن سيرين استوحى كتاب الإغريقي الشهير أرطميدوس. ويستهل ابن سيرين المقدمة عارضاً فيها معايير تفسير الأحلام والرؤيا والمقاييس التي على المعبر أو المفسر اعتمادها، مفيداً القارئ ان ما يَرى في المنام هو على قسمين، قسم من الله وآخر من الشيطان، وحجته قول الرسول "الرؤيا من الله والحلم من الشيطان". لكنّ الله هو خالق كل ما يَرى في المنام من خير أو شر. وفي رأيه أن الرؤيا الصادقة في قسمين أيضاً، "قسم مفسر ظاهر لا يحتاج الى تعبير أو تفسير وقسم مكني مضمر تودع فيه الحكمة والأنباء في جواهر مركباته". ويرى أن أصدق الرؤيا التي تحصل في الأسحار قبيل الفجر، وفي القائلة، في منتصف النهار أي القيلولة، و"أصدق الأوقات وقت انعقاد الانوار ووقت ينع الثمر وإدراكه، وأضعفها الشتاء". في رأيه أيضاً أن رؤيا النهار أقوى من رؤيا الليل، وهذا رأي فريد حقاً. الطريف أن الرؤيا بحسبه، تتغير عن أصلها باختلاف هيئات الاناس وصناعاتهم وأقدارهم وأديانهم، وكأنه يبغي القول إن الرؤى لا تخضع لقانون ماورائي أو ديني، فالمسلم والمسيحي واليهودي على سبيل المثل، تختلف الرؤيا لديهم لاختلافهم دينياً. وهذه المقولة تفرّق أيضاً بين العرق والطبقة وسواهما. وفي "خطبة الكتاب" أو المقدمة الثانية يمعن ابن سيرين في قراءة الرؤيا دينياً، أي إسلامياً، وينقل عن حديث للرسول يقول فيه: "إذا اقترب الزمان تكدرت رؤيا المسلم، أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاث: الرؤيا الصالحة بشرى من الله عز وجل، ورؤيا المسلم التي يحدّث بها نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدّث به وليقم فليصلّ". ويتعرض ابن سيرين لبعض الرؤى النبوية ومنها رؤيا آدم وابرهيم ويوسف وموسى ورؤيا المصطفى.

تفسير النابلسي

أما الشيخ النابلسي فيفتتح مقدمة كتابه "تعطير الأنام في تعبير المنام" بجملة بديعة تستبطن فعل النوم قائلاً: "الحمد لله الذي جعل النوم سباتاً وخلق الناس أشتاتاً وبسط الارض لهم فراشاً وجعل الليل لباساً والنهار معاشاً...". ثم يروح يحدد مفهوم التعبير والتفسير لافتاً الى كتاب مجهول رآه قبل أن ينطلق في صنع كتابه وهو لإبن غنّام ويعدّه السابق الى "هذا الأسلوب التام ولكنه مختصر لا يفي بغلة المتعطشين من ذوي الافهام". أما مقدمته فبدت ذات روح شبه علمية في استعراضها المقولات الرئيسة في الرؤيا واستخلاصها أبرز المفاهيم الدينية والنبوية نظراً الى اعتمادها جلّ ما كُتب وصُنّف في علم التعبير والتفسير. ويورد النابلسي في خاتمة كتابه عناوين الكتب والتصانيف التي وضعها علماء ومعبّرون كثيرون من أمثال الدينوري المعروف بالقادري وابن الدقاق المقري والخليلي الداري والمزني الشافعي وابن عمر السالمي والشيخ جمال الدين وسواهم. والمستهجن عدم ايراده كتاب ابن سيرين كأنه لم يقع بين يديه على رغم شهرته وذيوع اسمه واكتفى بجملة يقول فيها: "ونقل عن ابن سيرين رحمه الله تعالى انه كان إذا وردت عليه مسألة رؤيا مكث فيها ملياً من النهار...". ولعل هذا ما يؤكد عدم اطلاعه على كتاب ابن سيرين الفريد والسبّاق.

يتطرق النابلسي في مقدمته الى الرؤيا الصادقة، وهي في رأيه خمسة أقسام، انطلاقاً من القرآن والحديث والمأثورات النبوية، وكذلك الى الرؤيا الباطلة وهي في سبعة اقسام، وأطرف قسم هو الحلم الذي يوجب الغسل ولا تفسير له. هذا الحلم أشار إليه أكثر من مرجع ديني، وغالب الظن أنه يعني الاحتلام في النوم، وهو ما يوجب دفق ماء اللذة ويفترض من ثمّ الاغتسال. هذا الاحتلام الليلي "الباطل" اسلامياً، يسمّى بالانكليزية "الحلم الرطب". ويرى النابلسي أن الرؤيا يراها الانسان بالروح ويفهمها بالعقل، ومستقرّ الروح نقاط دم في وسط القلب ومستقرّ القلب في رسوم الدماغ و"الروح معلّق بالنفس فإذا نام الانسان امتدّ روحه مثل السراج أو الشمس فيرى بنور الله وضيائه تعالى ما يريه ملك الرؤيا". ويضيف: "فإذا عادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما أراه ملك الرؤيا وخيل له".

> **هل يمكن حقاً تفسير الأحلام؟ هل يمكن وضع معاجم وقواميس- بات بعضها الكترونيا- تفسر كل ما يبصر الحالم وتوجد لكل عنصر أو رمز أو صورة تفسيراً أو تأويلاً واحداً في منأى من طبيعة الأشخاص الحالمين؟ مَن يقدر على تفسير تلك المشاهد الغريبة التي تطل علينا في عمق الغفوة؟ تلك المناظر العجائبية التي لا نعرف من أبدعها بجمالها الرهيب وغرابتها التي لا يمكن تصورها؟ مناظر يلتقي فيها ما لا يخطر في بال، شوارع لم يرها المرء مرة، بيوت يقطنها أناس لا يشبهوننا**

لعل قراءة متون كتابَي ابن سيرين والنابلسي، تمثل متعة بذاتها، فهما يجعلان من التفسير والتعبير ضرباً من الفن والتفنن ناهيك بالحكمة والتأمل والمضي في التأويل والتشبيه والمقارنة، حتى لتغدو مادة المعجمَين ابداعية ولا سيما في اللغة وبيانها. ولعل هذه الخصال هي مما يضفي عليهما مواصفات العمل الأدبي الذي يتخطى معايير الأدب القديم ويمضي في ابتداع لغة هي بنت العصر وخارجة عنه في آن واحد، بموضوعاتها وألفاظها وتراكيبها ونسيجها (كأنهما يحلمان عبر الكتابة).

المنهل الإغريقي

غير أن معظم الباحثين في هذا الحقل غالباً ما يشيرون الى كتاب أغريقي قديم كان له أثر في علم تفسير الأحلام عربياً وعالمياً، ويدعى صاحبه أرطميدورس (أو أرطاميدورس أو أرتميدورس) ويقال إنه أول كتاب وجد في التاريخ عن تفسير الأحلام. وقد ترجم هذا الكتاب في العصر العباسي وراجت ترجمته بين العلماء والفلاسفة المسلمين والعرب. ويعزو ارطميدورس الأحلام، مثله مثل بعض الجماعات، الى تدخل الآلهة وعالم الغيب، لكنه يدرجها في خانتين: الاحلام الصريحة والسافرة التي تنبئ عن الغيب مباشرةً، والأحلام الرمزية أو المقنّعة التي تتوارى خلف إشاراتها. اهتمّ أرطميدورس بالأحلام المقنّعة ووضع لها معايير وقواعد لتفسيرها وتأويلها. ويرى أن الرموز في الأحلام تستمد جذورها من شخصية الحالم ومن ظروفه وأحواله والعادات التي تهيمن على بيئته، مما يتطلب من مفسر الأحلام الاطلاع على هذه المجريات وفهمها كي يتمكن من تفسير رموز الأحلام وإشاراتها. ويقول الكاتب العراقي علي الوردي في هذا الصدد: "حين نقرأ كتب أرطميدورس نجد شبهاً غريباً بينها وبين الكتب المنتشرة بين المسلمين في تأويل الاحلام". عاش الإغريقي أرطميدورس في افسس قرابة العام مئة ق.م. كتابه في تفسير الأحلام يتألف من أربعة اجزاء ونُقل الى لغات اوروبية عدة بعدما طُبع باليونانية رسميا في العام 1518 ومنها اللاتينية (1539) والايطالية (1547) والفرنسية (1634). أما الترجمة العربية للكتاب فأنجزها المترجم السرياني الشهير حنين بن اسحق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بحسب ما ورد في "فهرست" ابن النديم. لعل أحد محققي هذه الترجمة العربية القديمة الباحث الأكاديمي اللبناني الأب توفيق فهد، الأستاذ في جامعة ستراسبورغ الفرنسية. هذا الكتاب الذي يعدّ الكتاب الرائد في علم تفسير الأحلام كان له عميق الأثر في معظم الكتّاب والمفسّرين العالميين والعرب، قديماً وحديثاً. وقد جعلت منه ترجمة حنين بن اسحق إلى العربية واحداً من المراجع الأبرز بين أيدي الفلاسفة والعلماء العرب. في العصر الحديث عرف هذا الكتاب شهرة في أوساط العلماء النفسانيين ولقي لديهم ترحاباً، وكان فرويد نفسه كال له المديح في كتابه "الأحلام وتفسيرها".

لكنّ السؤال الذي طالما راودني وما فتئ هو: هل ينبغي تفسير الاحلام؟ ألا يكفي المرء أن يبصر أحلامه ويعيشها بما تختزن من سحر ومن أسرار تظل أسراراً ولا تحتاج الى أن تخرج الى الضوء؟ لم يقل الحلم لنا يوماً لماذا وجد. لم يبح يوماً بلغز وجوده. ولا من أين يأتي ولا إلى أين يذهب. قال لنا: هذا أنا احلموني. احلموني فقط.

هل يمكن حقاً تفسير الأحلام؟ هل يمكن وضع معاجم وقواميس- بات بعضها الكترونيا- تفسر كل ما يبصر الحالم وتوجد لكل عنصر أو رمز أو صورة تفسيراً أو تأويلاً واحداً في منأى من طبيعة الأشخاص الحالمين؟ مَن يقدر على تفسير تلك المشاهد الغريبة التي تطل علينا في عمق الغفوة؟ تلك المناظر العجائبية التي لا نعرف من أبدعها بجمالها الرهيب وغرابتها التي لا يمكن تصورها؟ مناظر يلتقي فيها ما لا يخطر في بال، شوارع لم يرها المرء مرة، بيوت يقطنها أناس لا يشبهوننا، حقول يملأها عشب لم تطأه قدم من قبل، غابات وحدائق، أشخاص لا أحد يدري مَن خلقهم ورماهم هناك، شواطئ ورمال ومراكب كأنها في أقصى واقعيتها... صور لا يسهل ادراكها، يحتاج المرء أن يفرك عينيه كثيراً كي يبصرها. وجوه رَسمت بملامح غير مألوفة وتَركت هناك في تلك البلاد التي ندخلها ونخرج منها من دون علمنا أو مشيئتنا. أحلام كأنها وجدت لئلا نسأل كيف ولماذا.

ما جدوى تفسير الأحلام في كتب تتناولها الأيدي كما لو أنها مراجع لا بد منها. هل يمكن اختزال الشجرة على سبيل المثل في معنى أو رمز واحد؟ الشجرة التي يحلم بها الحطّاب هل هي نفسها الشجرة التي يراها شاعر أو رسّام أو كاهن أو صيّاد أو تلميذ في حلمه؟ هل تعني الشجرة لابن سيرين ما تعنيه لفرويد أو يونغ؟ لا يمكن إخضاع الأشياء في الأحلام الى تفاسير مسبقة و"جاهزة"، فالحلم أصلاً هو ضرب من الالتباس الحسي والروحي، تتداخل فيه الأشياء وتختلط اختلاطاً عجيباً وتتآلف فيه الثنائيات والمتناقضات حتى الامحاء. لكنّ قراءة كتب التفاسير القديمة تظل حافلة بـ"الامتاع" و"المؤانسة" والخيال و"المعرفة". وقد تشبه نصوص هذه الكتب أحلام اليقظة التي يصنعها الحالم بنفسه، منتقياً أحلامه كما يحلو له ويحسن. هذه الكتب وضعها علماء هم حالمون ولكن بوعي ويقظة وتأمل وتأويل... كأنهم يفسرون وهم على يقظة مما يتخيلون أنهم يحلمونه. بل كأنهم عندما يفسرون يتحدثون عن أحلام يرغبون في أن يبصروها هم. أتحدث هنا عن كتب التفاسير الحقيقية وليس عن الكتب ذات النزعة التجارية المنتشرة شعبياً، التي ليست غريبة عن تفاسير البصارات والبصارين الذين يصدّقهم كثر من البشر.

* فصل من نص طويل هو عبارة عن خاتمة لكتاب "غيمة أربطها بخيط: أحلام بأحلام" (يصدر قريباً).

الفن ذلك الشيء الذي اختفى من حياتنا

فاروق يوسف

فوجئتُ بأن عدداً من المستمعين إليَّ لم يكن يعرف شيئاً عن عصر الباروك. كانوا رسّامين ورسّامات. هذا يعني أنهم لم يتعرفوا من قبل إلى رامبرانت وفيلاسكيز، أما فيرمير فربما يكون قد وصل إلى البعض من طريق الفيلم الذي تخيل مؤلفه ومخرجه حياة الخادمة التي تصب الحليب في لوحته الشهيرة. وهي لوحة صغيرة، قد تشكل معرفة حجمها فجيعة للمعجبين بها من خلال الفيلم. يعرضها متحف راكس في أمستردام باعتبارها تحفة، غير أنها بالنسبة إلى نتاج فيرمير نفسه، لم تكن سوى تحفة سياحية. فهي إن قيست بما كان متاحا في عصرها، لم تكن إلا لوحة عادية. لست هنا في مجال الحكم على فيرمير. أتذكر أنني عن حسن نية كنت أتذكر أسماء رسّامين عظام مثل تيرنر، مفترضا أن المستمعين لا يحتاجون إلى أن أشرح لهم مَن هو تيرنر، غير أنني اكتشفتُ خطأ الافتراض. كان من الصعب عليَّ أن أصدّق ذلك الاكتشاف. أما كان عليَّ أن أستعد للقاء بشر غير الذين توقعت لقاءهم؟ في تلك الحال كان الخطاب ليكون مختلفا. لن يكون جهل الفنانين سوى وضع طبيعي بالنسبة إلى الناس العاديين. سيكون عليَّ حينها أن لا أمرّ بعصر الباروك عابراً، مفترضاً أن مَن يسمعني على دراية بذلك العصر. لقد شعرت يومها بأنني خُدعت. فمَن يجهل عصر الباروك وهو أعظم عصور الفن في التاريخ، لا يستحق أن يكون فناناً. المفاجئ أن أحداً من الحاضرين لم يسألني عن ذلك العصر الذي استلهمتُ منه استنتاجاتي التي تشير إلى نهاية دورة من الفن. لقد شعر الكثيرون بالهلع حين صرت أتحدث عن نهاية الرسم في عصرنا، بعدما رسم الاميركي سي تومبلي زهوره ومات. لم يسألني أحد ماذا سيحدث بعد تومبلي؟ أشكّ في أن أحداً منهم كان يعرف تومبلي أو رأى لوحاته مباشرة. هل عليَّ أن أعترف بأنني خرجتُ من تلك المحاضرة محطماً نفسياً؟! غيري يمكنه أن يحتل مكاني. لم يكن أولئك الفنانون في حاجة إلى ما أقوله. إنهم جهلة، وهم فرحون بجهلهم. ذلك لأن مجتمعهم قد وهبهم موقع مَن يرى مستقبله. وهنا بالضبط تقع الكذبة التي تقول الحقيقة. لقد أخذتنا إحدى السيدات إلى بيتها الذي كان ممتلئاً بالأعمال الفنية، فلم نر عملاً فنياً يمكن الوقوف أمامه لتأمله. كل الأعمال التي جمعتها تلك السيدة يمكن أن ترمى في النفايات. ولكن ما مصير أعمال الفنانين والفنانات اللواتي ألقيتُ عليهم محاضرتي بعدما أتضح جهلهم بأعظم عصور الفن؟

■■■

كان صادماً بطريقة فكاهية ما قرأته لأحد نقّاد الفن العراقيين من تحليل لرمزية أن تتخذ حركة فنية أوروبية من أفعى الكوبرا اسماً لها. المقصود هنا COBRA الجماعة الفنية الطليعية التي تأسست في العام 1948 ولم تعش طويلا وكان من أعضائها كارل آبل، كورنيل، كريستيان دوتريمنوت. لو أن ذلك الناقد أتعب نفسه في تصفح القليل مما يعرضه موقع "غوغل" عن تلك الحركة، لما كان ورّط نفسه في اختراع متاهة بلاغية لا معنى لها. فإسم الجماعة في حقيقته كان مستلهماً من الأحرف الأولى من أسماء المدن التي ينتمي إليها فنانو الحركة. كوبنهاغن، بروكسيل، وأمستردام. متعة الكاتب في تحليل رمزية أن تكون أفعى الكوبرا اسماً لجماعة فنية، لا تعفيه من الجهل، بل لا تعفيه من شبهة تضليل قرائه من خلال الكذب عليهم. حين قرأتُ ذلك المقال المضحك صرت أفكر في ما مرّره كتّابٌ عرب سابقون من حقائق مضللة. لكن الكذب لا يتعلق بالكتّاب وحدهم. أتذكر أن فائق حسن وهو معلّم فن مرموق (مؤسس فرع الرسم في معهد الفنون الجميلة ببغداد) كان ذهب إلى باريس في العام 1937 وأمضى معظم وقته ينقل أعمال دولاكروا المعروضة في متحف اللوفر، وحين عاد إلى بغداد لم يكن يعرف من الرسامين الفرنسيين سوى دولاكروا، بالرغم من أن الحياة الباريسية حوله كانت بمثابة خزان متفجر من التحولات الفنية. لقد لقّن الرجل طلبته الجهل عن طيب خاطر. ما يؤسف له أن جهله صار لعدد من طلبته عنواناً لسلوك يفاخرون به. هناك اليوم عشرات الرسّامين العراقيين الجهلة الذين تتحكم بهم عقدة اسمها فائق حسن.

بالنسبة للرسام الجاهل، الرسم هو صنعة، لكنها صنعة مغلوبة على أمرها. فالمسافة بين رسام ناجح ورسام فاشل، هي نفسها المسافة التي تفصل بين نجار ناجح ونجار فاشل. الكارثة الحقيقية تقع هنا. أما حين تكون السوق معياراً للنجاح فإن ساحة السباق ستخلو تماماً من الفنانين الحقيقيين. فالفنان الحقيقي يدرك أن سباقاً من هذا النوع ليس هو المكان الذي يليق به. الفنان الحقيقي هو ابن تجربته وليس تابعاً للسوق. يعرف الفنان الحقيقي أن ما تقرّه السوق لا يدخل ضمن خياراته، لذلك يتعفف عن الجري وراء غوايتها. عبر التاريخ هناك أمثلة تؤكد وجود رسّامين فضّلوا الجوع على أن يكونوا عبيداً للسوق. سيكون فان غوغ النموذج الذي يحتكر ذلك النوع من العفة. لم يبع الرسام الهولندي في حياته سوى لوحة واحدة. لوحاته الآن لا تُباع، ذلك لأنها صارت ملكاً للبشرية كلها من خلال المتاحف.

■■■

لا أغفر للرسّامين جهلهم بأحوال الرسم في عصرنا كما في العصور الذهبية السابقة. فالرسم معرفة بقدر ما هو ممارسة. لذلك فمَن يمارس الرسم من غير معرفة ليس رسّاماً حقيقياً. الحرفة قد تقتل الموهبة التي ينبغي أن تتربى في حاضنة الشغف المعرفي، الذي يتجاوز كل حدود. لكن مهلاً. علينا أن نتريث في الحكم. فليس كل مَن يمارس الرسم في العالم العربي يعرف ما الرسم، من جهة الحرفة. كان هناك ظرفاء اخترقوا تاريخ الرسم باعتبارهم حرفيي رسم، من غير أن يهبوا أنفسهم مكانة، كانوا يخجلون من الاقتراب منها. كانوا يجيدون حرفة الرسم، غير أنهم كانوا يفتقرون إلى خيال الرسّام، حريته، جنوحه إلى التمرد. كانوا رسّامين قاعديين، أجادوا مهنتهم مثلما يفعل الخطاط والمزخرف. كانت أخلاقهم المهنية قد فرضت نوعاً من التقدير، أحيطوا به، وهو التعبير الأمثل عن تبني محاولتهم في حدودها الضيقة. ما يجري اليوم يكاد يكون مختلفاً تماماً. هناك حشود ممّن يقفون إعلامياً في الصفوف الأولى من المشهد الفني، ليسوا في الحقيقة رسّامين ولا رسامات. شاء حظّ رسمنا العاثر أن يكونوا كذلك. غالبيتهم لا تجيد قواعد الرسم ولا تعرف شيئاً عن تاريخ الرسم وليست لها علاقة معرفية بجماليات الرسم، غير أنها تجرؤ على أن تقدم نفسها باعتبارها صاحبة الحق في الدفاع عن الرسم والرسّامين معاً. كل جمعيات الفن في العالم العربي يقودها ويديرها أشخاص هم أقل من أن يعتبروا ضيوفاً على الفن. ألا يؤكد ذلك الواقع استنتاجي المرير؟ ذات مرة، فيما كنت أشارك في ندوة عن الفنون البصرية، فاجأنا أحد المحاضرين بمداخلة تحدث فيها عن إشكاليات السرد الروائي. كان الرجل واثقاً من نفسه. قلت يومها لأسعد عرابي وكان يجلس إلى جانبي: يبدو أن الرجل قد أخطأ القاعة. فبدلاً من أن يذهب إلى القاعة المجاورة التي كانت تحتضن مؤتمراً عن السرد الروائي دخل إلى قاعتنا. كنت أمزح، غير أنني اكتشفتُ في ما بعد أن فكاهتي السوداء كان لها قدر من الأساس الواقعي. كان هناك فعلاً مؤتمر للنقد الأدبي يُعقد في قاعة مجاورة. معظم رسّامينا دخلوا إلى القاعة الخطأ، مثلما فعل ذلك الناقد.

■■■

سنفكر في مصير الرسم. مَن أباح لنا القيام بذلك؟ أعتقد أن الطارئين الذين لا يليق بنا أن نسمّيهم ضيوفاً، لا يعنيهم سؤال من ذلك النوع. فهم وجدوا الأبواب مفتوحة أمامهم بسبب الفوضى التي اجتاحت ثقافتنا منذ أكثر من ثلاثين سنة، لا يفكرون في شيء بقدر تفكيرهم في الاستحواذ على مساحة أكبر تحت الأضواء. لذلك سيكون عليَّ أن أوجه الانظار إلى حقيقة الوضع الرث الذي يعيشه الرسم اليوم، في ظل شعور هائل بعدم الاكتراث يجتاح الكثيرين. الرسم في العالم العربي يمر اليوم في أسوأ مراحله. هناك رسّامون حقيقيون، غير أنهم أقلية. بل أقلية تكاد تكون غائبة بسبب انزوائها وتعففها ونزاهتها وتمنعها وشعورها باليأس من الجمهور، بذائقته السوقية. الآن وقد صارت الغلبة لما تقترحه السوق، كل شيء سيكون ملكاً لمَن يشتري ومَن يبيع. لم يعد الفن حديقة عامة بل مجموعة متلاصقة من الاقطاعيات، يسند بعضها بعضها الآخر من أجل صنع صورة مضللة عن ذلك الشيء الذي اختفى من حياتنا. هل هناك حرب تَشنّ على الفن الحقيقي؟ أكاد أكون واثقا من ذلك. لقد كثرت أعداد المنتسبين زيفاً إلى الفن، بحيث صار في إمكانهم أن يكونوا بدلاء من أصلاء غائبين. لا يفكر أحد في لحظة الهدم. مَن يهدم مَن؟ لن تتمكن الأقلية من هدم الكيان الذي تحتمي به الغالبية. كما أن الغالبية لن تهتدي إلى الجزر الخفية التي تقيم عليها الأقلية. ولكن هناك ما يتهدم من غير أن يقع الصدام بين الطرفين. ذلك الشيء هو الفن. أما ما تشهده مدن عربية شتى من لقاءات فنية، فلا يعني أن الفن لا يزال حياً. العكس هو الصحيح. من خلال رصد تلك اللقاءات يمكن المرء أن يشكل صورة واضحة عن الوضع الرث الذي وصل إليه الفن. فالفنان الحقيقي في تلك اللقاءات هو غريب إن حضر، مثل صالح في ثمود.

لوحة للجمركي هنري روسو.

رشة ملح

جواد الساعدي

أوهام نووية

من السذاجة الاعتقاد بأن العالم، بعد الاتفاق النووي، سيطلق يد إيران في المنطقة، وبأن طريقها في "تصدير الثورة" وتوسيع النفوذ والسيطرة ستكون ممهدةً وخاليةً من أيّ قوةٍ مضادّة، كما يجري إيهام الأتباع والمريدين بذلك. من السذاجة أيضاً أن يعتقد المرء بأن الدول العربية والإقليمية المصنفة دولاً "سنية"، ستساهم بشكل جدي في القضاء على "داعش" و"القاعدة" ومتفرعاتهما من دون خطةٍ موازية ومتصلة للقضاء على ميليشيات إيران في كل المنطقة، تالياً تحجيم الدور الإيراني ونزع مخالبه الأمنية والعسكرية.

على الشيعة العرب أن يلتفتوا إلى هذا الأمر وأن يفعّلوا، المرّة تلو الأخرى، مبادراتهم لحل المشكلات السياسية والعقائدية مع محيطهم العربي السنّي، بمعزلٍ عن السياسة الإيرانية. وعلى الدول العربية، وخصوصاً الخليجية، أن تتلقف هذه المبادرات وأن تفتح الطريق أمامهم لمساعدتهم في التخلص من ضغوط إيران والميليشيات المرتبطة بها، ذلك إذا كانت هذه الدول تخوض صراعها مع إيران على أساسٍ عربي فعلاً وليس على أساسٍ محض طائفيٍ. على الشيعة العرب أن يستخلصوا الدرس من حوادث اليمن، فخفوت الصوت الإيراني في شأن اليمن بعد الإتفاق النووي، رغم انطلاق الحرب البريّة، بالمقارنة مع الزعيق الإيراني المصحوب بالأساطيل في بداية الحوادث، يشير إلى جوهر السياسة، وإلى ما يمكن حصوله من تسويات سياسية في مناطق أخرى على حسابهم، تسوياتٍ سياسية تحت غطاءٍ ناري كثيف قد يَصيبُ منهم مقتلاً. فالقوة الإيرانية ليست قوةً متفردةً أو متفلتةً من سنن التاريخ، وهي لا تستطيع حمايتهم وحماية أجيالهم إلى الأبد. ما يحميهم هو التصالح مع شعبهم أولاً، ثم مع أمتهم، ومع هذا البحر السنّي المتلاطم الذي يحيط بهم. أما معتدلو السنّة، دولاً أكانوا أم أحزاباً ومنظمات، فعليهم استخلاص الدرس من معركة الإصلاح الجارية في العراق، حيث أثبتت أنَّ هناك، إلى جانب التيار المدني، تياراً شيعياً عراقياً، لا بل عربياً، يتمايز بفكره ودوره عن الميليشيات المرتبطة بإيران. على إعلام تلك الدول والأحزاب، أن يكفّ عن التوصيفات التي يطلقها على عموم الشيعة، كربطهم بالعنصر الفارسي والتشكيك الرخيص في انتمائهم العربي والإسلامي، أو إحالتهم على حادثة تاريخية، كأنها الوحيدة في التاريخ، أعني حادثة العلقمي، فهنالك أكثر من علقمي سني، خان "الدولة الإسلامية"، وخان "الخلافة"، ذلك إذا سلّم الجميع جدلاً بخيانة العلقمي. إن الخيانة مسألة شخصية لا تنسحب على مذهبٍ أو طائفة، ولا تتعدى إلى الأجيال اللاحقة. فلو صحت مثل هذه الإحالة لما وجدنا جماعةً أو فِرقةً إلاّ ويَجلّلها عار بعض تابعيها. على الطرفين، الشيعي والسنّي، أن يَعِيا بأن الحلول التي تحقن الدماء وتثبّت الإستقرار وتقود إلى التقدم والرخاء الدائمين، هي الحلول التاريخية القائمة على تفهمٍ عميق لعوامل الصراع ولتاريخ المنطقة وتَنوّعها الحضاري، وليس الحلول القائمة على القوة أو الإيمان بالحق الإلهي المطلق "الموكول" لهذا الطرف أو ذاك. فالقوة ليست سرمدية، وهي خاضعة للتبدل والتحول ضعفاً، عندذاك سيذهب معها ما أنتجته من حلول، ليتفجر الصراع مرّةً أخرى وتُدفع الأثمان من جديد لتأتي حلولٌ جديدة قائمة على إرادة القوة الصاعدة. أما "الزاهدون" في الحياة، سواءٌ من المستعجلين للقاء "الحور العين" أو ممن يتوقون إلى الأخذ بـ"ثارات الحسين"، فليس من حقهم أن يختطفوا حياة الناس ويدمّروا أمن المجتمعات في سبيل أن يبلغوا أهدافهم في طمأنة الذات القلقة أمامَ عالم الغيب. إن الدعوة للانفتاح على التيار الشيعي العراقي والعربي، لا تعني في أي حالٍ من الأحوال صحة سياسات التحريض العربي على القومية الفارسية وطمس الدور الحضاري الذي لعبه الفرس في تاريخ المنطقة، قبل الإسلام وبعده. من السهل أن يتخيل المرء عدم حاجة الأقلام العربية للتنقيب كثيراً عن هذا الدور، فيما لو كان النظام الذي يحكم إيران نظاماً بصبغة طائفية مختلفة، وليس من الصعب الإدراك بأن الأدوار الحضارية للأمم، مهما تعاظمت، يمكن أن تمرَّ بفترات تراجع يطفو فيها ما يصلح مادةً لرسم صورة سلبية؛ ينطبق ذلك على الفُرس كما ينطبق على التّرك والعرب وغيرهم. كان العرب قبل الإسلام وثنيين يعبدون الأصنام ثم يأكلونها، وكان الفُرس مجوساً يقدّسون النار، ليس لذاتها، إنما لخالق خلقها، حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب تعامل مع من أراد البقاء على المجوسية كما تعامل مع أهل الكتاب. أما التّرك فكان لهم إله يعبدونه اسمه كوك تَنْگري، والإسلام يجُبُّ ما قبله، شرط أن لا تتدخل السياسة، ومَن يُفتون لها باسم الدين.

لوحة لمنصور الهبر.

رميةٌ نووية

جاء في "الشاهنامة"، ملحمة الفرس الكبرى لأبي القاسم الفردوسي: "بينما كان (الملك) أوشهنج على سفح أحد الجبال ظهرت له حيّة، عيناها كَبِرَك الدم، ولهيبها دخانٌ أسودٌ يغطي العالم بدكنتهِ، فتناول حجراً ورماه بها لدرء خطرها، فاصطدم الحجر من قوة الضربة بصخور الجبل، وأحدث باصطدامه شعلةً متوهجةً، فأفلتت الحيّة، وكانت النار. سَرَّ أوشهنج باكتشافه، فسجد شاكراً ربّه تعالى على تلك النعمة، متخذاً النار قبلة، وهذا سبب تعظيم النار عند الفرس"

إشكالية نووية

لا يَمكن لمسلمٍ سنّي أن يقبل سبَّ الصحابة أو النيلَ من السيّدة عائشة زوج الرسول وأم المؤمنين. وأنا أؤيده في ذلك.

ولا يَمكن لمسلمٍ شيعي أن يقبل بيزيد بن معاوية، خليفةً لرسول الله، وأن يكون الحسين "خارجاً عن القانون" قد شق عصا الطاعة، تالياً، هو ممن سيدلفون إلى النار. وأنا أؤيده في ذلك.

ولا يَمكن لعاقلٍ أن يقبل باستمرار هذا الصراع الدموي لقرون مقبلة، فوق قرون مضت. وأنا أويده في ذلك أيضاً.

تعليق

سناء الجاك

المرشح الأقوى

تستفز عبارة "المرشح الأقوى" كل من يمعن التفكير في ويلات لبنان، ذلك ان معايير القوة كانت ولا تزال سبب هذه الويلات. ولأن منظومة القيم أضحت مغشوشة ومشوهة، يجدر بنا رصد هذه المعايير ومراقبة مدى تأثيرها في الصحة النفسية للشعب اللبناني المنكوب بذاته وتركيبته وخياراته وتعنته وعنصريته وإصراره على رفض الآخر لمجرد انه آخر. فالقوة، ليست المقياس الذي يسمح لمن يحصل عليها، بأن يتحكم بالآخرين، ويفرض شرعية وحيدة يحق لها مصادرة باقي الشرعيات في هذه الرقعة التي تجمع اللبنانيين على ضيقها.

لا يحق للقوة ان تستولي على السلطة، حتى لو كانت قائمة على قضية لا غبار عليها. القضية الفلسطينية العادلة والمحقة، خير مثل على نكسة تاريخية عاشها لبنان بعدما اكتسبت هذه القضية قدرات عسكرية ومالية سوّلت لها ان تتحكم بحياتنا الوطنية، ما ساهم في حرب أهلية واجتياحات اسرائيلية وتقاتل ابناء الصف الصف الواحد سعياً الى تصفيات تُنتج غلبة قادرة على مصادرة السلطة.

للتذكير، كان "المرشح الأقوى" طرفاً في التقاتل داخل البيت الواحد، وقد سخّر الجيش، او نصفه الطائفي، لتحقيق مراده والقضاء على غريمه، حتى جاء مَن هو أقوى منه ومن هذا الغريم، ووضعهما في ثلاجة الانتظار مستخدماً من يخدم مصالحه أكثر عندما تضعف قوته ويفقد مواقعه في لبنان. وهذا ما حصل بعد عودة هذا "المرشح الأقوى" من منفاه الباريسي الأنيق.

معايير القوة تنطبق أيضاً على "حزب الله" وتنظيم "داعش". وربما اذا احتسبنا جغرافياً المساحة التي يسيطر عليها تنظيم "داعش"، سواء في سوريا او العراق او ليبيا، تبيّن لنا انه يفوق "حزب الله" قوة. لكن هل يعني هذا ان من حق الداعشية ان تحكم المنطقة؟

مسألة القوة ومعاييرها تحتاج الى بحث وتشريح. وإلاّ يمكننا اعتبار مافيات المخدرات والدواء والفساد أصحاب حق مقدس في تولي زمام البلد.

بداية، علينا ان نتأكد من الزعم السائد بأن تسمية "المرشح الأقوى" تستوفي شروطها: هل يكفي ان يؤيده "حزب الله" ومعه إيران والنظام الأسدي ليصبح صاحب حق؟ هل يمكن ان يفوز في انتخابات نيابية لا يدعمه فيها الحزب وحلفاؤه ومعهم الكتلة الانتخابية الأرمنية؟

اذا رمينا أسباب الفشل والشك في تمثيله الكاسح لكل المسيحيين، على عدم وجود قانون انتخابي يسمح له وحده بالفوز مع من يرشح في كل المناطق حيث الصوت المسيحي، يبقى السؤال عن انجازاته التي لم تبصر النور عندما تولى فريقه السياسي حقائب حساسة وخدماتية في الحكومات المعاقبة منذ 2008. ام انه الأقوى في المطلق، والمنزّه من أي اتهام بالتقصير والفساد؟ واذا لم تتحقق انجازات، فذلك لأن الحق دائماً على غيره. وكل قوته كانت لتشع وتتلألأ لولا ان فريقاً يصر على اضطهاده والتصدي لتغيير القوانين التي تحول دون ترقية الصهر الثاني، حتى لا يغار من الاول ويخلخل موازين القوى في العائلة الواحدة.

حتى تاريخه، نحن لا نملك اي يقين عن استيفاء معايير "المرشح الأقوى" المواصفات وفق دفتر الشروط المطلوب في مناقصة من هذا النوع. اما الكلام عن انتخابات من الشعب، فدونه الخلل الجسيم في معايير القوة على الارض بين "حزب الله" الحاضر لتسليح كل من يخدم مقولة الأكثرية الشعبية، شرط ان تصب في صالح المحور الايراني، ولها الله باقي الشعوب اللبنانية المحدودة الامكانات.

ما نعرفه ان صهر "المرشح الأقوى" سقط مرتين وبجدارة حيث لا عونة من أصوات الشيعة والأرمن. تالياً، لا نعرف على أي شعب يتكل الجنرال بمعزل عن قوى الأمر الواقع التي لا تعترف بدولة وانتخابات وما الى ذلك من تفاهات يستنجد بها الضعفاء للاعتراض على استفراد هذه القوى بتخريب مستمر للبلاد على حسابها ولحسابها.

اما قوة العقل، التي تسعى الذرية الصالحة لتعميمها من خلال مؤسسة فكرية مستحدثة، فالقرائن والسوابق لا تبشر بها. الا اذا كان المطلوب تقديم جائزة ترضية في المحطة الأخيرة للقطار، على اعتبار ان الجمهورية كلها واجهة هشة لوطن مسلوب تم تجييره ليتباهى من خلاله المسؤولون الايرانيون بأن لهم موطئ قدم على المتوسط، ما يعني حكماً ان رئاسة الجمهورية لا تحتاج حتى إلى مرشح. تكفي تقنيات التعيين لإنجاز الفولكلور المطلوب. ولا حول ولا قوة الا بالله!

شعر

بليز سندرار

نثرُ القطار العابر سيبيريا

شهد مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، انتفاضة شعرية ذات روح جديدة، تمثلت في كتب كديوان أبولينير، "كحول"، وبيانات المستقبليين الايطاليين كـ"الكلمات المسرَّحة". وها قد شهد العام 1913 أول محاولة جديدة إيقاعاً وإخراجاً في تاريخ الحداثة الشعرية: "نثر القطار العابر سيبيريا"، للشاعر بليز سندرار (1887 - 1961). فهي قصيدة الرحلة بامتياز، ورحلة القصيدة عن كل التقاليد الشعرية وفتح أفق جديد للغة الشعرية. تم طبع القصيدة 150 نسخة، على ورقة طولها متران، مطوية على شكل أكورديون، وإذا لصقنا نسخة بأخرى حصلنا على ارتفاع برج إيفل 300 متر. تخللت الأبيات بشكل مواز رسوم تجريدية ملوّنة بريشة سونيا ديلوني. بهذه الروح الشعرية الجديدة المواكبة للفن الجديد وللحياة العصرية في باريس آنذاك، اعتبرت أول محاولة بين الرسم والشعر في آن واحد. لم يعط سندرار أي أهمية للأوزان سواء أكانت الكسندرانية أم حرة، بل حتى رفض ان يسمّي عمله هذا "قصيدة القطار..."، مع أنها مهداة إلى الموسيقيين، موضحا: "إني استخدم كلمة النثر هنا بالمعنى اللاتيني في العصور الوسطى، أي الكلام المَرسل. ذلك أن كلمة قصيدة بدت لي مفتعلة وادعائية ومنغلقة. بينما كلمة نثر شعبية وأكثر انفتاحا". غير أننا إذا حاولنا أن نفعّل بعض الأبيات، فسنجد أشباح بعض تفعيلات الوزن الفرنسي هنا وهناك، لكن لا تسعفنا في شيء يمكن أخذه كمبدأ نقيس عليه بقية القصيدة. كما إني أحب أن أذكّر القارئ بأن هذه القصيدة، المكتوبة في مطلع القرن العشرين، التي اعتُبرت، آنذاك، جديدةً في تقطيعها الشعري، تكاد تشبه، من ناحية كسر التفاعيل/ المقاطع وخلط بحر ببحر مختلف، ما نتج عندنا في النصف الثاني من ذاك القرن تحت تسمية قصيدة النثر العربية. تتناول القصيدة رحلة بالقطار المعروف "العابر سيبيريا" الذي تم افتتاحه في العام 1904، من موسكو إلى فلاديفوستوك قرب سواحل اليابان، يمر بمدن/ محطات آسيوية مذكورة في القصيدة. لا أحد يعرف إذا كان سندرار قد قام فعلا بالرحلة أم لا، المهم أنه يعطينا انطباعاً بأنه قام بها برفقة عاهرة اسمها جان، وأحيانا يصبح اسمها جيهان دو فرانس لاعباً على اسم جان دارك. قبل أن أترك القارئ ليتمتع بدفق رحلة النثر هذه، هناك بعض النقاط يجب شرحها: (1) إن الثورة الروسية التي يتحدث عنها الشاعر هي ثورة 1905 وليست ثورة أكتوبر عام 1917. (2) "وردة الرياح" هي دائرة الرياح لبيان الجهات الأصلية والفرعية وتنقسم 32 رأسا. (3) " لَعبَ حبل" هي ترجمة لكلمة Bilboquets وهي لعبة تتكون من حبل تُشَدّ في طرفه كرة وفي الطرف الثاني خشبة ذات تجويف، والرابح هو من يستطيع اسقاط الكرة في التجويف. (4) "سِيَسَاءُ سِكَّةِ القِطار" La moëlle chemin-de-fer مصطلح طبي انكليزي railway spine (تلو رضح العمود الفقري)، وأول من استخدمه هو ماكس نوردو واصفاً به التأثير الضارّ للحضارة الحديثة على الجهاز العصبي! (5) "بلاد الألف بحيرة" هي فنلندا. (6) "غولكوند" المشهورة بكنوزها الأسطورية كانت عاصمة هندستان وحاليا اسمها حيدر آباد. (7) اللون الأصفر إشارة إلى الوان غلف الروايات التي تميزت بها دار "ميركور" الفرنسية. (8) ميترلينك مسرحي بلجيكي نال جائزة نوبل في العام 1911. (9) sirène "سيرَيْن" في الأساطير اليونانية القديمة هي حورية، وحاليا تعني صفّارة انذار. وبما أنّ البيت في نهاية القصيدة غير واضح وملتبس المعنى، أي لا نعرف هل كان يقصد حورية أم صفارة انذار، فضلت استخدام سيرَيْن لكي يبقى الالتباس كما في الأصل. "باتاغونيا" منطقة طبيعية في جنوب الأرجنتين وتشيلي. أما "فئران الفنادق" فهم اللصوص.

الترجمة والتقديم: عبد القادر الجنابي

كنتُ آنذاك يافعاً
وقد نسيتُ حتّى طفولتي وأنا لم أكد أبلغ السادسةَ عشرة
كنت على بعد ستّة عشر ألفَ فرسخ عن مسقط رأسي
كنت في موسكو، في مدينة الألف والثلاثة الأبراج والسبع المحطات
ولم تكن المحطّات السبع والألف والثلاثة الأبراج كافيةً لي
إذ كانت مراهقتي جدّ متوهّجة ومندفعة
بحيث كان قلبي يحترق كمعبد ارتيميري
في إفَس أو يتوهّج حين تغيب الشمس كساحة موسكو الحمراء.
وكانت عيناي تضيئان المسالك القديمة.
وكنتُ أصلا شاعراً جدّ رديء
إذ لم أعرف كيف المضي حتّى النهاية.
كان الكرملين أشبه بكعكة تترية هائلة
متلألئة بحلوى الذهب،
وبِلَوْز الكاتدرائيات البيضاء
وبصوت الأجراس المعسول الذهبي...
راهبٌ عجوز كان يقرأ عليَّ أسطورة نوفغورود
كان بي عطشٌ
وكنت أفكّ شفرة الحروف المسمارية
ثمَّ، فجأةً، حلّق حمام الروح القدس فوق الساحة
فطارت معها يداي ضاجتين كخبطة أجنحةِ طير الالباتروس
وكان هذا كله بمثابة آخر ذكريات اليوم الأخير والرحلة الأخيرة
والبحر.

على أنّني كنتُ شاعراً جدّ رديء.
إذ لم أعرف كيف المضي حتى النهاية.
كنتُ جائعاً
كان بودّي أن أشرب وأحطّم
كلَّ الأيام وكلَّ النساء في المقاهي وكلّ الكؤوس
بل أن أرمي في فرن الخناجر
كلَّ النوافذ وكلَّ الشوارع
وكلَّ البيوت وكلَّ حياة
وكلَّ عجلات العربات التي تدور كالإعصار فوق أحجار الزلط السيئة
وأن أهرس كلَّ العظام
وأن أقتلع كلّ الألسنة
وأميّع كلَّ هذه الأجسام الضخمة الغريبة
والعارية تحت الملابس التي تذعرني...
كنت أتنبأ بمجيء مسيح الثورة الروسية، العظيم الأحمر...
والشمسُ كانت جرحاً سيئاً
كان ينفتح كنار متأجّجة.

كنتُ آنذاك يافعاً
وقد نسيتُ حتّى ميلادي وأنا لم أكد أبلغ السادسةَ عشرة
كنتُ في موسكو، حيث كنتُ أرغب في التغذّي على النيران
وعيني لا تَكوكِب أبراجاً ومحطّات قطارٍ بما يكفيني

في سيبيريا كانت المدافع تدوّي، فالحرب اندلعت
الجوع الطاعون البرد الكوليرا
ومياه "آمور" الغرينية كانت تجرف ملايين الجثث المتعفّنة.
رأيتُ في كلّ المحطات القطارات الأخيرة تغادر.
ولمْ يعد في إمكان أحد المغادرة إذ التذاكر قد نفدت
والجنود الذين كانوا على وشك المغادرة أرادوا حقاً أن يبقوا
كان هناك راهبٌ مسنٌّ يغنّي لي أسطورة نوفغورود.

أمّا أنا، الشاعر الرديء الذي كان لا يودّ أن يذهب إلى أيّ مكان،
فكان يمكنني الذهاب أنّى أريد
والتجّار أيضاً كان لا يزال لديهم بعض المال ليحاولوا الثراء.
كان قطارُهم ينطلق صباح كلّ جمعة.
يقال إنّ هناك الكثير من الموتى.
أحدهم حمل مئة صندوق من ساعات التنبيه
وساعات الغابة السوداء الجدارية المَوَقوِقة
وآخرَ، صناديقَ القبعات، مجسّمات اسطوانية
ونازعات سدادات الزجاج المصنوعة في شيفيلد
وآخرَ، توابيتَ صُنِعَت في مالمو مُلئت بمعلّبات وسردين بالزيت
كان هناك كثيرٌ من النّساء
نساءٌ ما بين أفخاذهنّ هو للإيجار ويمكن استخدامه
توابيت
كنّ جميعاً خاضعات للضريبة
يقال إنّ هناك الكثير من الموتى
سافرن بأسعارٍ مخفّضة
وكان لهن حسابٌ جارٍ في البنك.

وإذا بدوري يأتي صباحَ جمعةٍ،
كنّا في كانون الأول
فغادرتْ برفقة مسافر جوهرجي ذاهب إلى خاربين
كان لدينا مقصورتان و34 صندوقاً من مجوهرات فورتسهايم
بضاعة رديئة "صُنِعت في ألمانيا"
ألبسني بدلةً جديدة، وعند الصعود في القطار فقدتْ زرّاً
- أذكره، أتذكّره، أفكّر فيه إلى اليوم-
نمتُ على الصناديق وكنتُ جدّ سعيد باللعب مع المسدس المطلي بالنيكل الذي أعطاني إياه
كنتُ طائشاً جدّ سعيد
ظنَنتُ أننا نلعب دورَ قطّاع طرق
وقد سرقنا كنز مدينة غولكوند
وكنّا ذاهبين، بفضل قطار عابر سيبيريا، لإخفائه في الجانب الآخر من العالم
وكان عليَّ أن أصونه من لصوص جبال الأورال
الذين كانوا قد هاجموا بهلواني جول فيرن
ومن اللصوص المغول، ومن ملاكمي الصين
ومن صغار مسعوري لاما الكبير التيبتيين،
ومن علي بابا والأربعين حرامي
ومن أتباع شيخ الجبل الرهيب (حسن الصَّباح)
وفي الأخص من آخر مستجدات العصر
فئران الفنادق
واختصاصي القطار الدولي السّريع.

مع ذلك
كنتُ حزيناً كطفل.
إيقاعات القطار
"سِيَسَاءُ سِكَّةِ القِطار" الذي تكلم عنه نفسانيون أميركيون
ضجيجُ الأبواب، الأصواتُ، مَحاورُ العجلات
الصارّة على القضبان المجمّدة
قرشُ مصيري الذهبي
مسدّسي والبيانو وشتائمُ لاعبي القمار في المقصورة المجاورة
حضور جين الرائع
الرجلُ ذو العوينات الزرق الذي يمشي بعصبيّةٍ في الرواق وهو ينظر فيَّ بشكل عابر
حفيفُ النساء
صفيرُ البخار
وديمومةٌ ضجيج عجلات هائجة في أخاديد

السماء
النوافذُ متجمّدة
ما من منظر للطبيعة!
وما وراء سهول سيبيريا، السماء منخفضة
وظلال غابات سيبيريا الصموتة تصعد وتهبط
تدثرّتْ ببطانيةٍ
مبرقشة
كحياتي
وحياتي لا تدفّئني أكثرَ من هذا الشّال السكوتلندي
وأوروبا كلُّها التي نلمحها من خلال واقية قطارٍ سريع، من الريح
ليست أثرى من حياتي
حياتي التعيسة
هذا الشّال
المنسوج من الحرير على صناديق مليئة بالذهب
أسافر معها
إنْ أحلم
إنْ أدخّن
فإنّ شعلة الكون الوحيدة
لهي فكرةٌ بائسة...

وأوانَ أفكّر في حبيبتي؛
يذوب قلبي دمعاً عليها
فهي ليست سوى طفلة، وجدتُها هكذا
في ماخور، شاحبة، بلا دنس.

فهي ليست سوى طفلة، شقراء، ضحوكة وحزينة،
لا تبتسم البتة ولا تبكي البتة؛
لكن في أعماق عينيها، حين تتركك أنْ تشرب منها
ثمَّ زنبقة فضية رقيقة ترتعش، زهرة الشاعر.

إنّها رقيقة وصامتة، لا مأخذ عليها،
مع رعشةٍ طويلة عند اقترابك منها.
لكن حين أجيئُها أنا من هنا، من هناك، من الابتهاج
فإنّها تخطو خطوةً، ثم تغمض عينيها –
وتخطو خطوة.
فهي حبّي، وليس للنساء الأخريات
سوى فساتين ذهبية على أجساد ضخمة ملتهبة،
صديقتي التعيسة جدُّ وحيدة
جدُّ عارية، ليس لها جسد – إنها فقيرة جداً.

فهي ليست سوى زهرةٍ بريئة ممشوقة،
زهرةِ الشاعر، زنبقة فضية بائسة،
جدُّ بردانة، جدُّ وحيدة، وذابلة أصلاً
بحيث تنفجر دموعي حين أفكّر في قلبها.

وهذه الليلة كمئات آلاف الليالي الأخرى حين ينسل قطارٌ في الليل

- الشُّهب تتساقط -
والرجل والمرأة، حتّى في ريعان شبابهما،
يتضاجعان متعةً.

السماء أشبهُ بخيمةٍ ممزّقة لسيركٍ بائس في
قرية صيادي الأسماك الصغيرة
في فنلندا
الشمس مِسرجة داخنةٌ
وفي الجزء العلوي من أرجوحةٍ، تلعب امرأةٌ دورَ القمر.
مزمارٌ، شياعٌ، نايٌ عالي النغمة وطبلة سيئة
هذا هو مَهْدي
مَهْدي الذي نشأتُ فيه
كان دائماً بالقرب من البيانو حين تعزف أمّي
كمدام بوفاري سوناتات بيتهوفن
أمضيتُ طفولتي في حدائق بابل المعلّقة
وأوقاتٌ هروبي من المدرسة، أمضيتها في
المحطّات أمام القطارات المغادرة
أمّا الآن، فإني خلّفتُ جميع القطارات تركض ورائي
بازل، تمبكتو
كما لعبتُ في أهمّ ميدانَين لسباق الخيل: أُوتَيْ ولونغ شان
باريس - نيويورك
الآن، تركتُ جميع القطارات تركض طوال حياتي
مدريد - ستوكهولم
وفقدتُ كلَّ رهاناتي
لمْ يبقَ سوى باتاغونيا، باتاغونيا، لتناسب
حزني الهائل، باتاغونيا، ورحلة إلى البحار الجنوبية
أنا راحلٌ
كنتُ دائم الترحال
أنا راحلٌ برفقة صغيرتي جيهان دو فرانس
يقوم القطار بقفزة خطرة ثم يحطّ على كلّ عجلاته
القطار يحطّ على عجلاته
القطار يحطّ دوماً على كلّ عجلاته.

"قل لي، بليز، أنحن بعيدون عن مونمارتر"؟

نعم، نحن بعيدون، بعيدون
أكباش الفِداء قد ماتت جميعاً في هذه الصحراء
اسمعي رنينَ جلاجل هذا القطيع الأجرب تومسك،
تشيليابنسك، كويبشيف، تايشت، فيرخنه اودينسك، كثبان، سمارا، لا تنسي طولون
الموتُ في منشوريا
هو رصيفُ نزولنا مأوانا الأخير
هذه الرحلة رهيبة
صباح أمس
كان لإيفان إيليتش شَعرٌ أبيض
وكوليا نيكولاي ايفانوفيتش يعضُّ أصابعه منذ أسبوعين...

القطارُ ينبض في قلب الآفاق المرصَّصة
وحزنكِ الذي يَهزَق بالضحك...

"قل لي، بليز، أنحن بعيدون عن مونمارتر؟"

الهموم
انسي الهموم
جميع المحطات المتصدّعة المنحرفة طوال الطريق
أسلاكُ التلغراف التي تتدلّى منها
الأعمدةُ المقطّبة التي تومئ وتشنق المحطّات
العالم يتمطّى يتمدّد وينسحب مثل أكورديون
تعذبه يدٌ سادية
وفي تشقّقات السماء قطاراتٌ هائجة
تعدو بشكلٍ جنوني
وفي الثقوب،
العجلاتُ المذهلة الأفواهُ الأصواتُ
وكلابُ الشقاء التي تنبح وراءنا.
الشياطين أُطلِقَ سراحُهم
نفايات حديد
كلُّ شيء في حالة نشاز
طق طق طق طقة العجلات
قعقعات اصطدام
ارتدادات
إنّنا عاصفةٌ في رأس رجلٍ أصمّ...

"قل لي، بليز، أنحن بعيدون عن مونمارتر؟"

نعم، إنّكِ تزعجينني، وتعرفين جيداً أنّنا جد بعيدون
الجنون المفرط الحرارة يعجّ في القاطرة
الطاعون الكوليرا يرتفعان كجمرٍ متّقد في طريقنا
نختفي كلّياً في الحرب في قلب نفق
الجوع، العاهر، يتمسّك بالغيوم المبدَّدة
متغوّطاً معارفكَ بأكوامٍ نتنة من الموتى
افعلي مثله، مارسي مِهنتلكِ...

"قل لي، بليز، أنحن بعيدون عن مونمارتر؟"

نعم، نحن بعيدون، بعيدون
أكباش الفِداء قد ماتت جميعاً في هذه الصحراء
اسمعي رنينَ جلاجل هذا القطيع الأجرب تومسك،
تشيليابنسك، كويبشيف، تايشت، فيرخنه اودينسك، كثبان، سمارا، لا تنسي طولون
الموتُ في منشوريا
هو رصيفُ نزولنا مأوانا الأخير
هذه الرحلة رهيبة
صباح أمس
كان لإيفان إيليتش شَعرٌ أبيض
وكوليا نيكولاي ايفانوفيتش يعضُّ أصابعه منذ أسبوعين...

اعملي ما تعمله المنيّة المجاعة ← 23

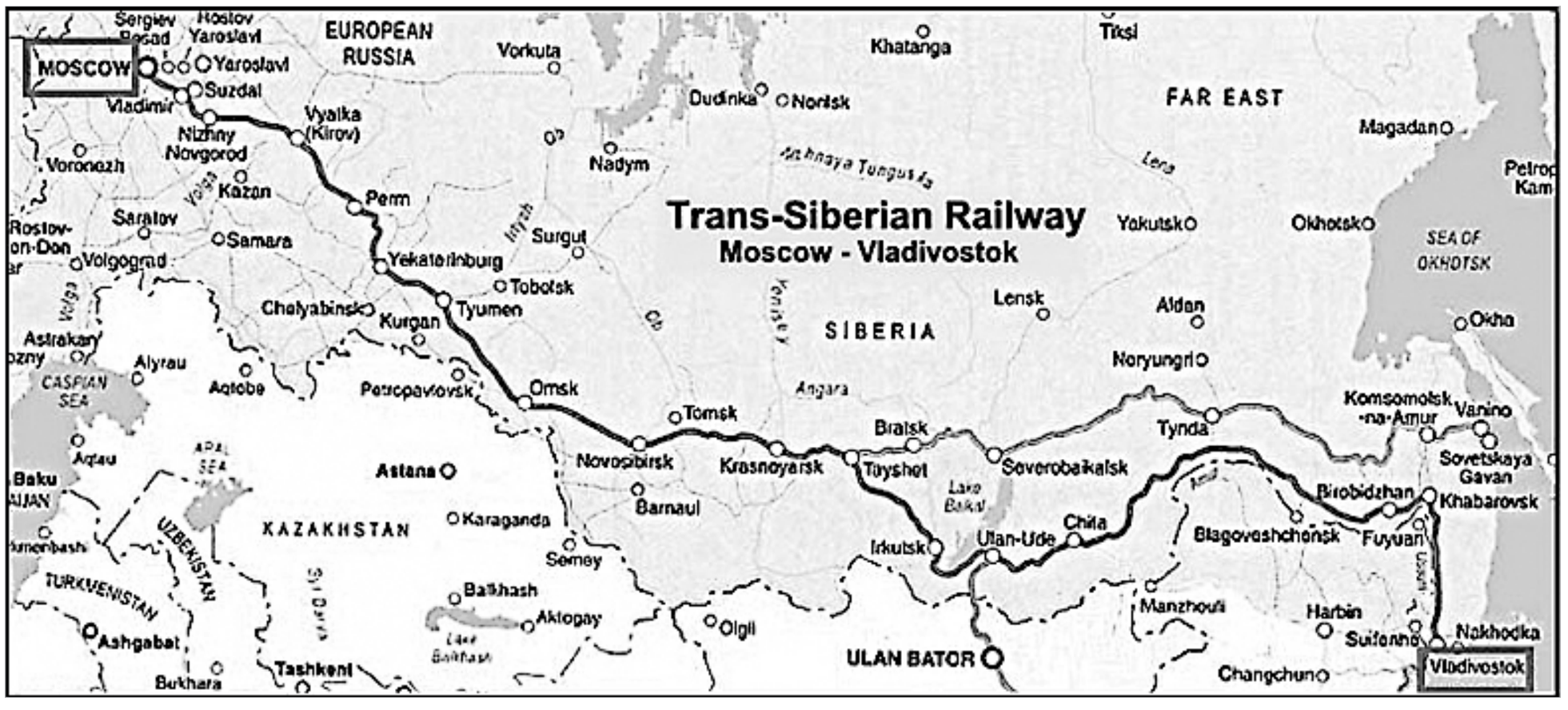

خريطة مرور القطار العابر سيبيريا.

القصيدة في طبعتها الأولى.

22 ← مارسي مهنتكِ
بمئة فلس، في القطار العابر سيبيريا، بمئة روبل
فلتكن المقاعد في حمّى وليشتدّ ما تحت الطاولة احمراراً
فالشيطان يعزف على البيانو
أصابعه المجعّدة تثير كلّ النساء
الطبيعة
الرخيصات
مارسي مهنَتكِ
إلى أنْ نصل خاربين...
"قل لي، بليز، أنحن بعيدون عن مونمارتر؟"

خلاص!... حلّي عني... دعيني وشأني
أوراكِكِ ناتئة
معدتكِ حامضة ولديكِ الزّهري
هذا كلُّ ما وضعته باريس في كنفكِ
وشيءٌ من الروح... لأنكِ شقية
أشفقُ عليكِ... تعالَي صوبي على قلبي
العجلات طواحين هواء من بلاد الكوكان
وطواحين الهواء عكازات يجول بها متسوّل
نحن كسيحو الفضاء
ندور على جراحنا الأربعة
قَصّوا أجنحتنا
أجنحة خطايانا السبع
والقطارات كلُّها لَعبُ حبلٍ بيد الشيطان
العالم الحديث
فِناءُ دواجن
ليس في وسع السرعة أن تفعل شيئاً
العالم الحديث
المنتأى جد بعيد
وأنْ تكون رجلاً مع امرأة في نهاية الرحلة لهو أمرٌ فظيع...

"بليز، قل، أنحن بعيدون عن مونمارتر؟"

آسف أشفقُ عليكِ تعالَي قربي لأروي لكِ قصة
تعالَي في سريري
تعالَي على قلبي
سأروي لكِ قصّة...

هيا تعالَي!

في جزر فيجي يسود الربيع الأبدي
الكسل
الحبُّ يغمي الأزواج في الحشائش العالية
والزهري الشديد يتربص تحت أشجار الموز
تعالَي إلى جزر المحيط الهادئ المفقودة!
فأسماؤها: عنقاء، ماركيز
بورنيو، جاوا
وسيليبس على شكل قطة.

لا يمكننا الذهاب إلى اليابان
تعالي نذهب إلى المكسيك!
فعلى هضابها المرتفعة تزدهر أشجار الخزامى
وشَعر الشمس الطويل هو العريش المتسلّق المَلمسي
كأنّما طبق ألوان الرسّام وفرشاته
ألوان مذهلة كما الصنوج،
روسو كان فيها
لقد بَهرَت حياتَه
إنّها بلدُ الطيور
طير الجنة، الطير القيثارة
طائر الطوقان، الطير الساخر
والطير الطنّان الذي يعشّش في قلب الزنبق الأسود
تعالَي!
ستتعاشق في أنقاض معبد الأزتيك المهيبة
ستكونين أنتِ معبودتي
معبودة صبيانيّة مبرقشة قبيحة بعضَ الشيء
وغريبة بنحوٍ غريب
هيا!
وإذا رغبتِ، نذهب بالطائرة، ونحلّق فوق بلاد الألف بحيرة،
الليالي فيها طويلةٌ بشكلٍ غير معقول
السلفُ القديم سيرتعد من محرّكي
سأهبط
وأبني سقيفةً لطائرتي بعظام الماموت المتحجّرة
وستدفّئ النارُ البدائية حَبّنا المسكين السمَاور
وسنتعاشَق بكل بورجوازيّة قربَ القطب
هيّا!

جِين جانيت
نينَت نينو
جنّيّة، عَنزتي
صَبيتي دودو جيهان
حَبّوبتي
مَهبِل هَبَول هَبَل
إنّها نائمة
نائمة
ولمْ تفطن لساعةٍ واحدةٍ من كلّ ساعات العالم
ولا لكلّ الوجوه التي لَمِحَت في المحطات
أو للساعاتِ الجدارية
أو لوقتِ باريس وقتِ برلين وقتِ سانت بطرسبرغ ووقتِ جميع المحطات
وفي مدينة أوفاء وجهِ المدفَعي المدمّى
ومزولةِ غرودنو المضاءة بكل غباوة
والتقدّمِ الدائم للقطار
مع أنَّ السّاعات كانت تَضبَط كلَّ صباحٍ
القطار يتقدّم والشمس تتأخّر
بلا جدوى،
أسمع الأجراس الرنّانة
ناقوس نوتردام الكبير
جرس اللوفر الخشن الذي راح يدقّ في ذكرى مذبحة البروتستانت
الدقّات الصدئة لرواية بروجس – الموت
أجراس مكتبة نيويورك الكهربائية
أجراس البندقية
وأجراس موسكو، ساعة الباب الأحمر التي كانت تُعلِمني بالوقت وأنا في مكتبٍ
وذكرياتي
القطار يدوّي على مفترق طرق
القطار يجري من دون أن يلوي على شيء
الحاكي يلثغ بلحن سَيْرٍ عجري
والعالم، كساعة حائط الحي اليهودي في براغ،
يدور بجنون إلى الوراء.
ورّقي وَردةَ الرياح
إذ أخذتِ الأعاصيرُ الهائجة تدمدم
والقطارات تجري بسرعة الريح على سكك شبكات متشابكة
لَعبُ حبل شيطانيّة
بعضُ القطّارات لا تتلاقى البتة
والبعضُ الآخر يضيع في الطريق
فأسيادَ المحطة بالَهم في لعبة الشطرنج
النرد
البلياردو
الكارامبولا
البارابولا
الخطّ الحديد هندسةٌ جديدة
سَرْقوسة
أرخميدس
والجنود الذين ذبحوه
القوادس الحربية ذات المجاديف
والبوارج
والآلات المذهلة التي اخترعها
وكلّ مذابح
التاريخ القديم
التاريخ الحديث
الزوابع
الفرقى
حتّى التيتانيك التي قرأتُ عنها في الجريدة
عديدٌ من الصور والتداعيات التي لا أتمكّن من تطويرها في أشعاري
لأنني لا أزال شاعراً جد رديء
لأنَّ الكونَ يغمرني
لأنني تقاعستُ عن تأمين نفسي ضد حوادث السكك الحديد
لأنني لا أعرف المضي حتّى النهاية
وأشعرُ بالخوف.

خائفٌ
لا أعرف المضي حتّى النهاية.
كان في وسعي أن أرسم لوحات جنونية مثل صديقي شاغال
لكنني لم أدوّن ملاحظات أثناء الرّحلة
"اعذروني على عدم درايتي
"اعذروني لأنّي لم أعد أعرف أصول لعبة النظّم القديمة"
على حد تعبير غييوم أبولينير
فكلّ ما له علاقة بالحرب يمكن الاطلاع عليه في مذكرات الجنرال كوروباتكين
أو في الصحف اليابانية فهي أيضاً موثّقة بشكلٍ فظيع

بريشة موديلياني.

ما نفعُ أن أوثّق نفسي
وأنا أستسلم
لوثبات ذاكرتي...

اعتباراً من ايركوتسك أصبحت الرحلة جد بطيئة
وطويلةً جداً
كنّا في القطار الأول الذي يلتف حول بحيرة بايكال
وقد زيّنوا القاطرة بالأعلام والمصابيح
وتركنا المحطة على نبراتٍ حزينة من ترتيلة للقيصر.
لو كنت رسّاماً لأسلتُ كثيراً من الأحمر، الكثيرَ من الأصفر على نهاية هذه الرحلة
إذ أعتقد أنّنا جميعنا كنّا حمقى بعض الشيء
وقد أشاع هذيانٌ هائلٌ الدمَ في وجوهِ رفاق السفر الغاضبة.
وحين كنّا نقترب من منغوليا
التي كانت تزمزم كالحريق
أخذ القطار يخفّف من سرعته
وفي غمرة صرير العجلات الدائم صافحَ سمعي نشيجٌ قدّاس أزَلي بنبرته المهتاجة.

لقد رأيتُ
رأيتُ القطارات الصامتة القطارات السوداء العائدة من الشرق الأقصى التي تمرق كالأشباح
وعيني، كالمصباح الخلفي، لا تزال تركض وراء هذه القطارات
وفي تايغا كان هناك مئة ألف جريح
يحتضرون لعدم توافر العناية
زرتُ مستشفيات مدينة كراسنويارسك
وفي خَيلوك التقينا بقافلةٍ طويلة من جنود أصيبوا بالجنون
رأيتُ في المحاجر الصحيّة، جروحاً واسعة، جروحاً كانت تنزف حتّى العظم
والأطراف المبتورة كانت تتراقص أو تتطاير في جو الصراخ المنفّر
كان أثر الحريق في كلّ الوجوه، وفي كلّ القلوب
أصابع بلهاء كانت تنقر على كلّ النوافذ
وتحت ضغط الخوف، كانت النظرات تنفقع كالدمامل
وفي المحطّات، تمّ حرقُ العربات كلّها
فرأيتُ
رأيتُ قطارات لها ستون قاطرة قد أَطلَقَت سيقانها للبخار تطاردها الآفاق المتهيجة جنسياً وأسرابٌ من الغربان كانت تحلّق بكلّ يأس إثرها
تختفي
في اتجاه ميناء آرثر.

في واحة تشيتا كان لدينا بضعةُ أيّام من الراحة توقفُ لخمسة أيام حسبَ ما يشترطه ازدحامُ الطريق
أمضيناها عند السيد لانكليفيتش الذي كان يودّ أن أتزوّج ابنته الوحيدة.
ثمّ انطلق القطارُ ثانيةً.
هذه المرّة أنا الذي وراء البيانو، كنتُ أشعر بألم حادّ في أسناني.
أرى ثانيةً حين أرغب، ذلك الهدوء الداخلي، متجر الوالد، وعيني الفتاة التي جاءت إلى فراشي مساءً
موسورغسكي
وأغنيةَ الموسيقار هوغو وولف
ورمالَ صحراء غوبي
وفي قرية خَيلار، قافلةً من الأبل الأبيض
يقين أنّني كنتُ في حالة سكر طوال 500 كيلومتر
لكنني كنتُ أعزف على البيانو وهذا ما استطعتُ رؤيته
عندما تسافر عليك أن تغمض عينيك
أن تنام
آه لكم وددتُ أن أنام
فإنني أتعرّف إلى جميع البلدان بعيون مغمضة من طريق رائحتها
وإلى جميع القطارات من خلال ضوضائها
القطارات الأوروبية لها أربع نوبات في حين الآسيوية خمس إلى سبع نوبات
والقطارات الأخرى تتهادى خفيةً إنّها تمويدات
وثَمَّ قطارات تذكّرني من خلال ضجيج عجلاتها الرتيب بنثر ميترلينك الممِلّ
حللتُ رموز نصوص العجلات المبهمة وجمّعت بعض ما تناثر من جمالٍ عنيف
أملكُه
ويحثّني.

تستزيكا وخاربين
لن أذهب إلى أبعد من ذلك
هذه آخر محطة
نزلتُ في خاربين لحظة اضرام النار في مكاتب الصليب الأحمر.

آهِ يا باريس
بيتاً كبيراً مُدفّأً بالجمرات المتشابكة لشوارعك
ومنازلك القديمة المنحنية منها وتتدفّأ
كما الجدّات
والملصقات، أحمر أخضر متعددة الألوان مثل ماضيَّ، باختصار أصفر
الأصفر لونُ الروايات لون فخر فرنسا في الخارج.

في المدن الكبيرة أُحبُّ أنْ أحتكَّ بالحافلات
وهي تسير
خصوصاً حافلات خط سان جرمان مونمارتر
التي تحملني إلى اقتحام التلّة
المحركات تخور كالثيران الذهبية
أبقارُ الغسق تأكل كنيسةَ القلب الأقدس

آه باريس
يا محطةً مركزيةً رصيفَ تنزيل الإرادات ومفترقَ طرقِ المخاوف
فقطْ محلات الخردوات لا يزال على أبوابها قليلٌ من الضوء
بَعثَتْ إليَّ شركةُ عربات النوم والاكسبرس الأوروبية نشراتها الدعائيّة
أنت أجملُ كنائس العالم
لديَّ أصدقاء يحيطونني كأنّهم حواجز
خوفَ أن أغادر ولن أعود أبداً
سائرُ النساء اللواتي التقيت بهن ينتصبن في الآفاق
بإشاراتهن الكئيبة ونظراتهن الحزينة كأعمدة الإشارة تحت المطر
بيلا، أنياس، كاثرين، ووالدة ابني في إيطاليا
والتي في أميركا، والدة حبيبتي
صراخ سيرَيْن ثمَّة يمزّق روحي
ففي منشوريا ثمَّة بطن لا يزال يرتجف كما في حالة نِفاس
أودّ
آه كم أودّ لو أنّي لم أقم برحلات
ثمَّ حبٌّ كبيرٌ يعذّبني هذا المساء
أفكّرُ رغماً عنّي في الصغيرة جيهان دو فرانس.
ففي مساء حزين كَتبتُ هذه القصيدة إكراماً لها.

جين
العَهَيْرة
أنا مُكتئب... أنا محزون
سأذهب إلى كباريه "الأرنب الحَرِك" لأستعيد ذكريات شبابي الضائع
وأحتسي بضع كؤوس
وبعدها سأعود وحيداً

باريس
مدينةُ البرجِ الفريد، المشنقةِ الكبيرة والدولاب الشهير.

* من كتاب يصدر قريبا تحت عنوان "معلّقات الحداثة السبع"

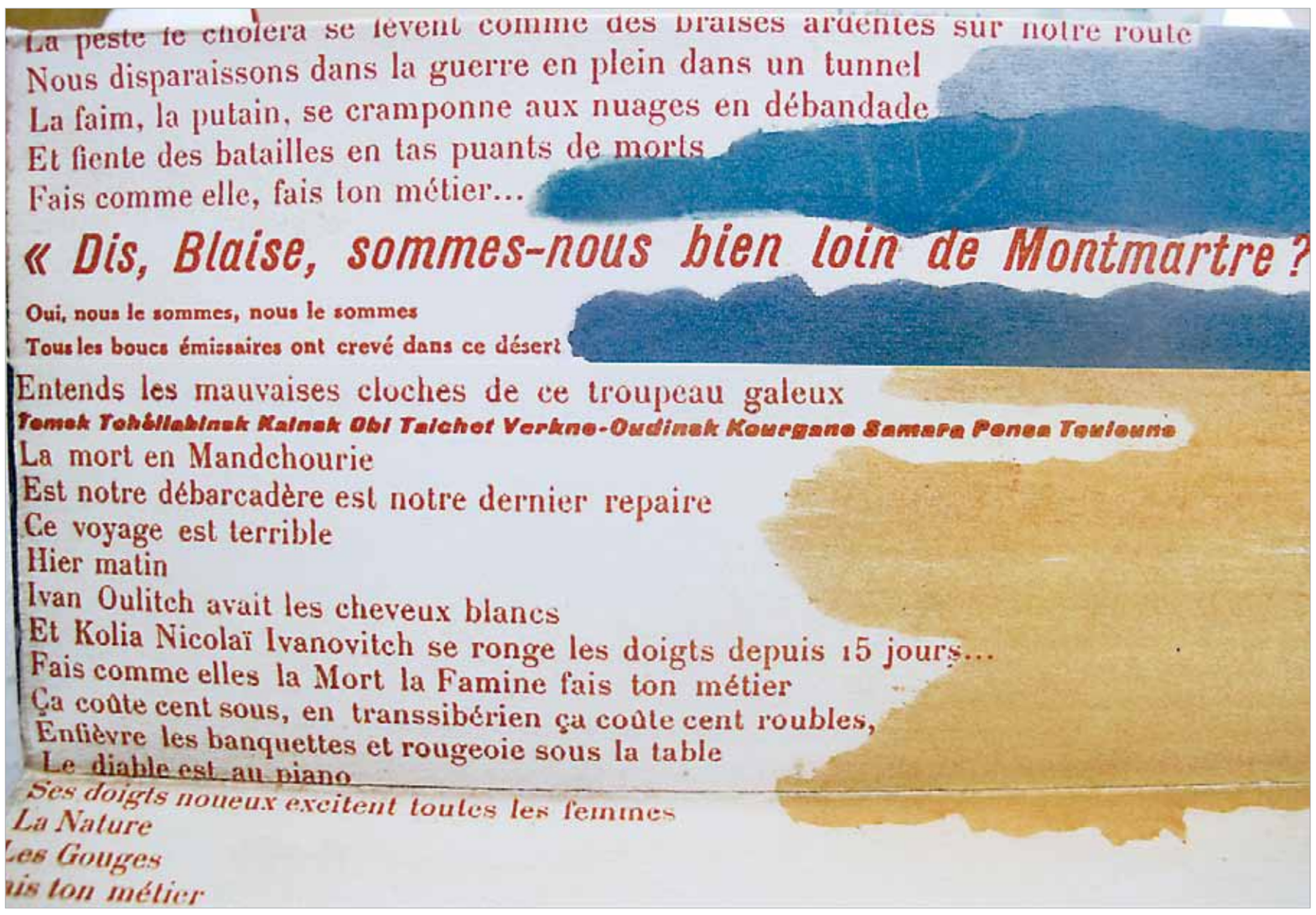

مقطع من القصيدة في إخراجها الأول.

صنعاء مدينة الله المحاصرة

حسين الوادعي

تبدو صنعاء المعبر الاضطراري لكل طامح يبحث عن الشرعية أو السلطة. كان الطامعون القدامى يعلنون سلطتهم انطلاقاً من منبر جامعها الكبير، لكنهم الآن يسعون إليها من هضبة التلفزيون وقصر الرئاسة. حتى يومنا هذا لا يزال الصراع على السلطة القدَر الذي شكّل صنعاء وتاريخها وحاضرها.

كم مرةً حوصرت واجتيحت ونُهبت؟ أكثر من 20 مرة! في بعض المرات دُمِّرت صنعاء وأصبحت منازلها أطلالاً. كانت حادثة نهبها في العام 1948 أكثرها التصاقاً بالذاكرة. ولا تزال سمسرة محمد بن الحسن شاهداً ذا دلالة على المدينة المحاصرة والمجد الغائب منذ العام 1948. كانت السمسرة تعتبر بمثابة "بنك" صنعاء وأضخم مبانيها، وتم تدميرها آنذاك ولا تزال خراباً حتى الآن!

النهب الاخير في 21 أيلول 2014 ليس الاّ حلقة تاريخية في سلسلة طويلة قد لا تنتهي، وخطة التحالف العربي لحصار المدينة و"تحريرها" هي لحظة قدرية تتكرر في تاريخ المدينة العتيقة منذ عشرات القرون.

■■■

المدينة المحاصرة

رفعت المدينة سورها الترابي وأحكمت إغلاق بوّاباتها السبع ولم يحمها ذلك من غزو طامعي السلطة ومقاتلي القبيلة. بنت بيوتها متلاصقة وحوّلتها الى سور يدور حول المدينة من طرفها الى طرفها. قلّصت من حجم أبوابها وحجم شبابيكها حتى أضحت مجرد فتحات صغيرة في الجدران. لكن الغزو والتدمير لم يتوقفا.

كان لصنعاء سبعة أبواب، وتحيط بها سبع قبائل لتدخل كل قبيلة من الباب المخصص لها. لكن المطامع كانت أوسع من الأبواب.

يتحالف الطامعون في الحكم مع القبائل المحيطة لاجتياح المدينة المحاصرة.

أطماع السلطة واقتصاد الحرب الذي تعيش عليه القبائل الفقيرة حوّلا صنعاء الى مدينة محاصرة أو مدينة في حال من الخوف المستمر من النهب والاجتياح منذ تأسيسها قبل مئات السنين حتى أيلول الأسود الماضي الذي شهد سقوط الدولة بسقوط صنعاء.

من هذا الجوار المتوتر نشأ داخل الوعي الصنعاني ذلك التوجس وعدم الثقة في "الآخر". "الآخرون" هم الزبائن الأساسيون لسوق صنعاء، لا يمكن أن ينتعش السوق بدونهم. الصنعائي هو البائع و"الآخر" هو المشتري. لكن عندما تتحول علاقة البيع والشراء الى علاقة الغازي والمغزو، لا تملك صنعاء الكثير للدفاع عن نفسها. تفتح أبوابها للغزاة وتنتظر ما الذي يبقى.

واحدة من اللحظات التاريخية النادرة التي قاومت صنعاء فيها الغزو كانت فترة حصار السبعين 1968. تلك البطولة التاريخية للناس والمكان وأحلام الثوة ضد غزو المرتزقة ورجعيي العصور الوسطى الممولين بأموال النفط وأوهام المذهب.

■■■

ثنائية الواقع والأسطورة

لم تترك صنعاء وسيلة للدفاع إلاّ اتخذتها: السور، الباب، القانون الحضري، التعالي على المحيط القبلي، والصلوات المبللة بالدموع في صحن الجامع الكبير.

في الأخير: لم تستطع المدينة الحضرية القتال دفاعاً عن نفسها فدافعت عن نفسها بالأساطير.

لجأ أبناؤها وشعراؤها ومؤرخوها الى إضفاء القداسة على المدينة. اختراع قداسة تضارع مكة والمدينة وأورشليم. هكذا أراد لها مؤسّسو أسطورتها القدسية.

جاء طوفان نوح. مُسِحت الأرض ومن عليها. ويبدو أن صنعاء دُمِّرت في زمن الطوفان كما دُمِّرت في أزمان كثيرة من قبل ومن بعد!

استدعى أبناؤها أنبياء البشرية لإعادة بنائها من جديد. ادّعى المؤرخون أن صنعاء بناها سام بن نوح فكانت بيوتها أول بيوت ترتفع بعد الطوفان. ثم جاء نبي الله هود وحفر أولى آبارها. وزارها المسيح عيسى بن مريم وأسس فيها أول كنيسة.

(حدثني غسان بن أبي عبيد البصري قال: دخل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام صنعاء، وصلّى في موضع الكنيسة فاتخذ النصارى كنيسة بصنعاء على إثر مصلاه.)

لم يساهم الأنبياء في بناء بيوتها فقط، بل أسسوا الحرف والمهن في سوقها الخالد. والمعلمون الأوائل للحرف ليسوا أشخاصاً عاديين أو مجرد أساطير، ولكنهم أنبياء: داود كان حداداً ونوح كان نجاراً ومنهما أخذ معلّمو صنعاء مهن الحدادة والنجارة!

وأتى وهب بن منبه المؤرخ الاسطوري والمؤسس الأعظم لـ"إيديولوجيا" الهوية اليمنية ليحجز لصنعاء مكانها المقدس في الكتب المقدسة: قال وهب بن منبه: قرأت في الكتب التي أنزلها الله تعالى فاذا فيها: أزال كل عليك وأنا أتحنن عليك. أزال بورك فيك وفيما حواليك.

سمعت وهب بن منبه يقول: وجدت في بعض الكتب أن عيسى بن مريم قال: "يا معشر الحواريين بحق أقول لكم إنه سيخرج من المدينة التي تسمى أزال رجل من زرع يعقوب من بعد ما يهلك الله ملوك الأرض، معه سبعة وسبعون قدوسا مباركين بالبركة التي بارك الله فيها على اسحاق ويعقوب".

الى جانب موسى وعيسى لم ينس المؤرخون والقصّاصون اليمنيون نبي الله سليمان. فأرادوا له أن يأتي الى جبل نقم (الحارس الشرقي للمدينة) ليحبس فيه الجن العاصين، وليبدأ أهالي صنعاء علاقة حذرة مع الجن المجاورين لا تقل حذراً عن علاقتهم مع القبائل المحاصرين!

■■■

وهمية القداسة وواقعية الخراب

ذهب عيسى وموسى وهود. ذهبت أساطير "الجاهلية" وأتت اساطير الإسلام، وجاء دور النبي محمد ليواصل مسيرة تقديس المدينة. اخترع أبناء المدينة عشرات الاحاديث النبوية لتعطيهم يقيناً هشاً بأن مدينتهم المحاصرة والمغزوة ستكون في أمان.

(قال رسول الله (ص): يقول الله عز وجل: "أزال كل عليك وانا اتحنن عليك").

في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، قرر أحد المؤرخين تأليف كتاب عن صنعاء. ملأ مؤرّخنا القروسطي الصنعاني كتابه بالمرويات والحكايات والأحاديث الموضوعة التي تؤكد أن صنعاء محفوظة من كل شر. وبعدما انتهى من سرد مروياته حول المدينة المحروسة التي لا يستطيع ان ينال منها أحد بفضل الله تعالى، انتقل الى فصل آخر يقول فيه: "... وقد خربت صنعاء وعادت وهي اليوم خراب وأرجو الله تعالى أن يعمرها بالصالحين من عباده"!

إن ثنائية الخراب والإعمار تحكم تاريخ المدينة منذ نشوئها حتى الان. استمر أهالي صنعاء في بنائها وتعميرها واستمر الغزاة في القدوم والتدمير، واستمر مؤرخوها في نقل واختراع المرويات التي تؤكد أنها محفوظة من كل شر.

قال الرازي: "اجتمع أهل اليمن بالجاهلية بتعود يريدون أن يغزوا صنعاء فبينا هم على ذلك اذا أقبل طائر في منقاره كتاب فألقاه بين أظهرهم، فاذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من الله لا من أحد سواه، من أراد بصنعاء سوء كبه الله على وجهه". ثم سنح لهم ظبي من بعض شعابها فرماه بعضهم بسهم فقتله فقال هؤلاء: نحن قتلناه، وقال هؤلاء: نحن قتلناه، فتجالدوا بالسيوف حتى تفانوا". وقال أبو المقدام اسماعيل بن سليمان بن سروش: سمعت وهباً يقول: ما أراد بصنعاء أحد سوءاً في الجاهلية أو في الاسلام الا ردّ الله كيده في نحره.

لا يصدّق سكان صنعاء قدر مدينتهم القاسي، فيهربون من واقعية الخراب الى وهمية القداسة وأقاصيص "المدينة المحفوظة من كل شر"!

■■■

مدينة الله

إنها مدينة الله بالنسبة إليهم. لهذا سكنوا على ثلثها فقط أما ثلثا المدينة فقد أوقفوهما الى الله.

نعم. كان ثلثا مساحة صنعاء عبارة عن ممتلكات وقفية من المساجد الى الأسواق والشوارع والبساتين.

الوقف ملك الله، تالياً هي مدينة الله لا مدينة البشر.

إنها مدينة الله، ممنوحة لله، وتعيش باسمه.

تم نهب أراضي أوقاف صنعاء، نُهبت مدينة الله سابقاً باسم السلطة، والنهب الآن مستمر باسم "الثورة" و"العترة".

لكن سوق صنعاء يأبى إلاّ أن يؤسس التجارة على الإيمان لا على الشطارة. فالتاجر في مدينة الله لا يربط ربحه بالعرض والطلب وإنما بإرادة الله. لهذا عاش سوق صنعاء على القانون الاقتصادي الأوحد: "ألف دكان على كف الرحمن".

الكلمة الجوهرية في سوق صنعاء هي الأمانة وليس الشطارة. أما أخلاق السوق فتقوم على الإيثار لا على التنافس، إذ يقوم التاجر الصنعائي بإغلاق دكانه أو إخفاء بضاعته ليتيح لجاره الذي لم يبع بعد أن يكسب قوت يومه!

هذه هي قوانين مدينة الله المنهوبة!

■■■

صنعاء مدينة العالم

تبدو صنعاء محكومة بحالَي الصراع والحصار، وبحالَي الغزو والنهب. وها نحن نعيش الآن تجليات هذا القدر للطامعين الجدد الى السلطة، أقادماً على حصان القبيلة والطائفة والسلالة أم على حصان الشرعية والـ اف 16 والمدرعات الحديثة.

لكن أبناءها لم يقتنعوا البتة بهذا القدر.

تظل صنعاء بالنسبة إليهم هي مدينة الله ومدينة العالم الى أن تقوم القيامة وينتهي الناس والايام.

عن عبد الرزاق عن ابرهيم بن محمد بن علقمة بن مرثد قال: قال رسول الله ص: "لن تذهب الليالي والأيام حتى تكون صنعاء أعظم مدينة في أرض العرب".

ستظل صنعاء ممزقة بين عظمة الأسطورة وبؤس الواقع، وسنظل ندافع عنها بالأساطير حتى إشعار آخر.

■■■

ملحوظة: الاقتباسات والمرويات مأخوذة من كتاب "تاريخ صنعاء" لاحمد بن عبدالله الرازي، المؤرخ الصنعائي من القرن الخامس الهجري، وأغلبها تنتمي إلى التاريخ الأسطوري لا التاريخ الحقيقي.

نص

إبرهيم اليوسف

شاحنة الشؤم: لقطة داخلية للوجوه والأوكسيجين والـ DNA

إلى حسين ورامان وركّاب رحلة الكربون

ثمة قشعريرة استثنائية سرت في بدني وأنا أتابع نبأ شاحنة الشؤم التي عثر عليها البوليس النمسوي، يوم الأربعاء الأخير من آب الماضي، مركونة على جانب إحدى الطرق الدولية شرق البلاد. ضمن سلّم الأولويات في حياتي، لا أفلح في التفكير أبعد مما بات يجري من تفاصيل سورية يومية، تغرق ذاكراتنا، بالدم، ورائحة الموت، بأشكاله التي عرفها السوريون براً، وجواً وبحراً. أتابع ما نشر عن تلك الشاحنة، وأحوال الواحد والسبعين طالب لجوء في داخلها، بعد تسريب صورتها وعليها علامتها الفارقة: "الدجاجة". صورة يتيمة، لظهور ورؤوس آدميين موزعين، بلا ملامح، وفق هندسة باتت لغزاً. صدمت صورة تلك الشاحنة الرأي العام العالمي، محركةً بعض الضمائر النائمة، قبل أن يأتي الطفل آلان عبدالله شنو ويوصل دورة الكهرباء، على نطاق أوسع، وهو "يردد النفير على آخره". لم أكن أعلم، حتى تلك اللحظة أن نجلَي صديقي الكاتب والفنان التشكيلي خليل مصطفى في عداد من شدّوا الرّحال، ليسافرا صوب أوروبا، على أمل اللجوء في ألمانيا تحديداً لإكمال دراستيهما، ولا سيما أن ابنه البكر حسين الذي أتذكر مرحلة ولادته كما أخوته وأخواته الآخرين، أحد المتفوقين في دراستهم في عالم الآثار، وقد دفع به الطموح ليتابع دراسة الدبلوم، لتكون بوّابته إلى الماجستير والدكتوراه، كي يغدو باحثاً آثارياً، في هذا الزمن الرديء الذي تمحى فيه آثار بلده، بل تَسرَق، وتُسجَّل بأسماء الأغيار، في ظل سرقة تاريخ، وجغرافيا، موصوفين، على أيدي قراصنة أمميين أو إقليميين، طارئين، أو بهلوانات مرتزقة محليين. صورة حسين، كما أكثر أخوته وهم أطفال، لا تزال ماثلة في عيني. أتذكرهم واحداً واحداً وهم يتدرجون على دروب الحياة. فأنا أحد المقرّبين منهم، بل أحد عمومتهم، وقد انتظمت علاقتي ببعضهم عبر المدرسة، كما توثقت علاقاتهم بأبنائي في مرحلة الجامعة، لأعرف الكثير عن شؤونهم اليومية، يؤمّن لهم أبوهم براتبه الضئيل كل ما يحتاجون إليه، من دون أن يتأفف، أو يتذمر، تعينه تلك المرأة الجبارة، المدبرة، الأصيلة، أم حسين، ليغدو أبناؤه وبناته أمثلة في حسن الخلق، والنبل، والشهامة.

أبو حسين صديقي، أكاد أعتبرني أحد أكثر من يفهمون سيكولوجيته، ما دام عمر العلاقة بيننا يبلغ أربعة عقود تماماً، إذ دأبنا على أن يحترم أحدنا خصوصيات الآخر في ما سلف من زمن، ولا سيما عندما اخترت خطاً فكرياً، ليكون له خطه المختلف. أنا خير من يعرف أبا بيننا من إرث مديد، أرى أقولها، وأنا أستذكر ما بيننا من إرث مديد، أرى ضرورة صونه، بكل ما لديَّ، وإن عبر التصادم عما يتم من جراء بعاد المسافات، أو جفوات الآراء، ولا سيما عندما أستعرض شريط مواقفه الحياتية إلى جانبي، إذ طالما اعتمدتْ عليه كأخ لم تلده أمي، وهذا يكفي لمحو ألف شائبة، إن وجدت، ما دام في إمكان عبارة جميلة، كلمة جميلة، محوها.

لم يغب خليل مصطفى عن بالي، كما إبرهيم محمود، كما الشيخ عبد القادر الخزنوي، كما محمد زكي السيد، أبو سالار، كما سيامند ميرزو، كما غيرهم من أحباب كثر، لا يَجَدُولهم حبرّ افتراضي، وهم رفٌّ من الأصدقاء القدامى اللدودين الذين أحسستُ دائماً أن بيننا من القواسم المشتركة ما يكفي لدحر أي نقطة اختلاف هنا أو هناك، حيث ظلّ رقم هاتف بيته محفوظاً في الذاكرة، ألجأ إليه، في السرّاء والضرّاء، أحترم اقتناعاته، أحترم اختلافه، وأحترم ما بيننا من ملح وخبز، وأنا أستقرئ إيقاع الزمن من حولي، بما تتيحه لي باصرتي، في أصعب لحظات دورته على الإطلاق.

لعل الأشهر الأخيرة التي رمى بي نفاد مدة جواز سفري السوري، بعيداً من البلد الذي اخترته لنفسي بعدما ضاقت بي سبل العيش بين أهلي، الإمارات، جعلتني أحس بأنني في جحيم قفص مكهرب، تأنفه روحي، وهي تتقلب متذاوبة، حول سفودها، على رغم كل ما يجده اللائذون بهذا العنوان الثالث من رحابة صدر رسمية من لدن أولي الأمر، وعوام الأهلين، ما يجعلني في شغل عن نفسي، وعن كتابتي، تقتات روحي على شحنات أرواح المخلصين الذين جمعتنا بهم معابر الحياة هنا وهناك، لأقول: الدنيا لا تزال بخير. إذ يحضر اسم المصطفى خليل، بكل ألق التاريخ المشترك، والتضحيات، وبما يجعلني ملاماً أمام أي فصل عن الوصل، في حضرته، ما دام أنه الأخ الأكبر، وموطن رجاء وصية الأب. من هنا، لم تصلني أخبار استعداد ولديه للسفر. لم أسمع بتدابير رحلتهما، إلا بعدما انقطعت أخبارهما، متزامنةً مع شبح شاحنة الشؤم التي تسللت إلى شاشات التلفزة، وصفحات الجرائد، وأفواه الناس في مجالسهم، متوزعة على لغات الأرضين، في الأربعاء التالي لانطلاقة رحلتهما، أو أربعاء السفر نفسه، الأربعاء الذي طالما تطيّر منه المتصوفة، خلال مجرد ساعات مكربنة، كي أعلم بنبأ غيابهما، وأبدأ بالبحث عن أي بريق أمل يربطني بهما، أو يعيدهما إلى أهلهما، دافعاً بظلال التشاؤم بعيداً، وأنا أنتظر هاتفاً منهما: ها نحن وصلنا يا عمّاه، كما هي حالي في انتظار صديقي كسرى خلو، الذي كتب إليَّ "فايسبوكياً" قبل بضع ساعات من غيابه، وتحديداً في آخر مساء الخامس والعشرين من آب، عشية الأربعاء الأسود: سأكون في ألمانيا، غداً، ولا أزال أنتظره! ثقيلة، كئيبة، كالحة، مريرة، مرّت الأيام العشرون الماضية، ونحن نتشبث بأي بريق أمل، يسلّمنا اليوم للتالي، والأربعاء للأربعاء، حتى انقضت ثلاثة أسابيع، بكمال مساميرها التي تواجه أرواحنا ومشيئاتنا العزلاء، وينعى أبو حسين على صفحته الـ"فايسبوكية" النبأ الأليم، بعدما قطع كل خيط أمل بعودة نجليه، ورفيقهما المهندس مسعود يوسف، أحياء، وهو يقرع أجراس استنفاره بروح الأبوّة، بل مدفوعاً بحنان أم بريئة، أصيلة، لا تغني كل كنوز الكون عن ظفر ابن لها.

ثمة أسماء أخرى، عانت من كربنة أوكسيجين الشاحنة، الكاتمة الأصوات، المحكمة الإغلاق، حتى ولو من سنتيمترات قليلة، التي ربما كان يقودها امرؤ مغفل، أو أرعن، تفوّق حتى على السجان السوري في تكديس الأجساد الآدمية، بعضها فوق بعض، وهو يواصل مهمته عبر زهق أرواح الأبرياء، من دون اتخاذ أي تدابير حول سلامتهم، متغافلاً عن هاتيك الأصوات المستغيثة، المختنقة، وقرع أصابع الأوادم، المسردنين، في علبة مركبته، وفق هندسة مجرمة، ربما لانصرافه لسماع صوت صبية مغناج في هاتفه، كأحد أوجه قراءة مسببات هذه النكبة العظمى التي طالت أرواح الأبرياء، وهم في مظان الهواء النظيف، والأمن الحياتي، كي يتحولوا خلال مجرد أنفاس مكربنة، إلى أجساد هامدة، بلا حراك، تاركين وراءهم حكايات أمهات وأخوات وحبيبات وأخوة صغار وآباء وأصدقاء وجيران، لا تزال عالقة في سمّاعات هواتفهم، وذاكرات "واتس اباتهم"، و"فايبراتهم"، وبريد رسائلهم، أو أغشية طبلات آذانهم، أو جدران أرواحهم، وهم ينتظرون نتائج تحاليل الـ DNA.

غير مفيد البتة، أيّ كلام هنا عن الحرب، أو النظام القاتل، أو دواعي هجرة شبابنا، أو فلتان مافيات التهريب الذين ينشطون دولياً، براً ووجواً وبحراً، على مرأى من العالم، المتابع للشأن السوري، مَراكمين ثرواتهم الباهظة من خلال الإتجار بأرواح البشر، بعدما غدت سوريا عبارة عن صفيح ملتهب يفوح منه، بلا توقف، نشيش الأرواح، المتلظية، وتوقفت الحياة التعليمية لدى أكثر من سبعين في المئة من طلاب مدارسها وجامعاتها، بل وانعدمت فيها سبل الحياة، في ظل الحصارات المتكاملة بين أشكال عديدة للإرهاب، تنوس ما بين قطبي النظام و"داعش"، ما دامت أغلى أرواح شبابنا تزهق بكل أفانين الموت.

لا يمكنني نسيان وجه حسين متألقاً في مطالع عقده الثالث، أو وجه رامان متماهياً في مطالع عقده الثاني، ولا نسيان جروح أبويهما الملتاعين، أو أفئدة أخوتهما وأخواتهما، وإن كنت سأجد صديقي خليل رابط الجأش، يرد عليَّ وأنا أهاتفه قائلاً: "أنا أعزّيك، أنت صاحب العزاء" عندما يلحظ ارتباكي وأنا أريد مواساته، وأنى لي أن أفعل ذلك. بل لا يمكنني أن أنسى شجاعة نجله بيمان في منفاه الكردستاني، وهو يمهد أمامي لتقبّل يقين نكبته بشقيقه، بعدما صارت بين يديه علائم تنذر بما هو واقع حقاً، وهو ليس بغريب عمّن تربّى في كنف هذه الأسرة الطيبة التي أعرفها حق المعرفة، أسرة صديقي خليل مصطفى!